FERAOUN

IBN AL-FAQIR

2269
.3569
.348

2269.3569.348
Feraoun
Ibn al-Faqir

DATE ISSUED	DATE DUE	DATE ISSUED	DATE DUE
MAR 2	MAR 30 '75		
DUE	NOV 2 1983		
XXXVVVVVVVVVVX			
	OCT 14 1983		

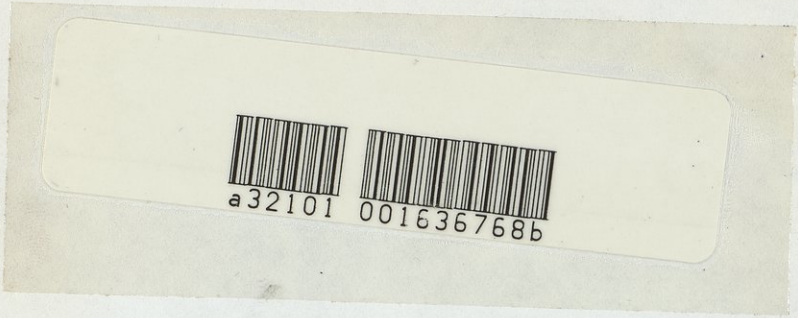
a32101 001636768b

وزارة الثقافة والإرشاد القومي - مديرية التأليف والترجمة

ابن الفقيه

رواية

تأليف: مولود فرعون

ترجمة: جورج سالم

مراجعة: حسيب الحلوي

سلسلة الأدب الجزائري

٦

هدية
وزارة الثقافة والإرشاد القومي
مديرية التأليف والترجمة
Feraoun, Mouloud

ابن الفقير

تأليف : مولود فرعون

ترجمة : جورج سالم

مراجعة : حسيب الحلوي

سلسلة الأدب الجزائري
٦

الناشر
دار دمشق
للطباعة والنشر والتوزيع

دمشق ١٩٦٢

2269
.3569
.348

مقدمة

استطاع الأدب الجزائري في السنوات العشر الأخيرة أن يشق طريقه ، ويبلغ مستوى أدبياً رفيعاً لفت اليه انتباه النقاد والدارسين في الشرق والغرب . ومع أن الكتاب الجزائريين يعتمدون اللغة الفرنسية فيما يكتبون وينظمون فإن أدبهم يظل أدباً جزائرياً يُعنى بمشكلات الانسان في الجزائر ، ويجهد في الإسهام بالمعركة الكبرى التي يخوضها شعب الجزائر من أجل الحرية والكرامة والاستقلال .

ومن هنا كان الادباء الجزائريون جزءاً لايتجزأ من الثورة الكبرى لأنهم أدركوا مسئوليتهم العظمى والتزموا قضية شعبهم وعبروا عن هذه القضية باخلاص وصدق وواقعية فكانوا بذلك شهوداً على القضية الجزائرية وجنوداً لها .

3-21-74 C

ولعل أبرز الاسماء التي تطالعنا في هذا المجال هي أسماء محمد ديب وكاتب ياسين ومالك حداد ومولود فرعون الذي نقدم لقراء العرب ترجمة اولى رواياته « ابن الفقير » .

ولد مولود فرعون في قرية تابعة لمديرية « فورنا سيونال » في منطقة القبائل العليا سنة ١٩١٢ . ويبدو أنه كان سيصبح كغيره من أبناء القبيلة راعياً ، ولكن الحظ حالفه فحصل على منحة دراسية ،

غيرت اتجاه حياته فتعلم وعاد الى بلده يدرس فيه ، محاولاً أن ينقذ اخوانه من وضع ومصير كانا ينتظرانه .

كتب مولود فرعون ثلاث روايات هي : « ابن الفقير » و « الأرض والدماء » و « الطريق الصاعدة » .

وفي رواية ابن الفقير التي نقدم ترجمتها اليوم ، يروي الكاتب حياة فتى من أبناء القبائل ، وتطوره ودراسته ونقمته على العالم ، عالم البؤس والفقر والألم والموت ؛ والحق ان هذه الرواية ليست شيئاً غير تاريخ حياة الكاتب نفسه . ففيها يصف تجاربه وآلامه ، والمحن التي ألمت به وباسرته ، وكيف جابه هذه المحن وتغلب عليها .

ولهذا فإن الرواية تحمل شحنة رائعة من الصدق والواقعين والدقة في وصف المشاعر الانسانية التي تشعر بها الفتى فورلو ، بطل الرواية وتمتاز بلوحاتها المؤثرة المتتالية عن حياة اسرة البطل . كما تصور الرواية في الوقت نفسه الحياة الاجتماعية والاقتصادية التي يحياها سكان تلك المنطقة من الجزائر .

وفي الرواية دفقة ثورية على الوضع الذي يعيشه الناس ، ولكن الكاتب لم يشأ أن يعرض هذه الروح على نحو خطابي أو تعليمي ، بل ترك للأحداث ان تتكلم ، وللمواقف أن تبعث الثورة في النفوس .

وأخيراً فإن هذه الرواية تسجل انتصار الانسان على الظروف السيئة التي تحيط به . فهي نشيد الظفر والفوز يرتفع نحو الانسان

والارادة الانسانية في تغلبها على العقبات والمشاق .

ان هذه الرواية لتذكر ببعض المؤلفات الانسانية التي وصف فيها الكتاب نشأتهم وطفولتهم كطفولتي لمكسيم غوركي ، والشيء الصغير لألفونس دوديه وديفيد كوبرفيلد لديكنز والأيام لطه حسين وقصة حياة للمازني والجزء الأول من سبعون لنعيمة وغير ذلك .

وقد نالت رواية ، « ابن الفقير » شهرة واسعة في الجزائر وفي شمال أفريقيا وفي فرنسا ، حتى غدت أثراً كلاسيكياً من آثار الأدب الحديث في شمال أفريقيا .

جورج سالم

الأسرة

« إنِنا نعمل لخدمة الآخرين حتى شيخوختنا ، وحـــين يدنو أجلنا سنموت من غير دمدمة ، وسنقول في العالم الآخر إننا تألمنا وبكينا . وعشنا أعوامـاً طويلة من المرارة ، ولسوف يرأف الله بنا . . . »

انطون تشيخوف

١

يعيش (منراد) المعلم المتواضع في ديار القبيلة « بين عميان »[١] ولكنه لم يشأ أن يعتبر نفسه ملكاً ، لأنه من أنصار الديموقراطية أولا ثم ليقينه الجازم بأنه ليس من العباقرة .

ولقد قضى عدة سنوات كي يكون مثل هذه الفكرة المفجعة عن نفسه . وليس من شأن هذا أن يحط من قدره ، بل على العكس .

لقد أسرَّ إلى مذكراته — وكان لديه دفتر مذكرات — منذ الشهور الأولى التي بدأ يعلم فيها بعد إنهاء دراسته : « حين أعود إلى نفسي وأتأمل وضعي بالنسبة إلى قيمتي أستخلص بمرارة أنني مظلوم ، فإن النقص في الوسائل لعقبة كؤود . ومع ذلك فان استنتاجي لا يتوقف عند هذه الناحية . وما دمت أشعر بأنني على مثل هذا الذكاء الحاد ، مع الكتب القديمة والدفاتر القديمة ، فلا شيء يدل على أنني لن أمضي إلى أبعد من هذا ... » « لقد انتهى الأمر وعقدت العزيمة ، وان النجاح لمضمون . فكلما تذوقت دراسة أوليـــة عن رونسار وشعراء البليـاد ، تقوت عزيمتي ، وغدا الامتحان الذي يواجهني أشد يسراً » .

كان منراد طموحاً ، وكان يهزأ من طموحه . كان الشقي يـدرك

---

(١) لهذه العبارة علاقه بالمثل الشائع : « الأعور بين العميان ملك » .

أنه إذا ما طال سعيه في سبيل التحليق كالنسر ، فانه لن يزيد على أن يحوم كالبط .

فأذعن اذن لأن يكون ، بكل يسر ، معلماً في قرية كالقرية التي شهدت مولده ، وفي مدرسة ذات صف واحد يحيا بين جميع الفلاحين اخوانه ؛ يتحمل معهم آلام الوجود ، ونفسه هادئة كل الهدوء ، تنتظر مثلهم ، بتسليم غير مبال وثقة مطلقة — على حد تعبيره — اليومَ الذي يدخل فيه الجنة التي وُعد بها المتقون .

وهذا الموقف الجدير بالثناء من كل الوجوه ما هو بموقف المتشكك ، فليس منزاد المسكين بقادر على التفلسف ، وإنما هو شعوره البين الواضح بضعفه .

وأراد بعد عدوله عن الامتحانات أن يكتب ، لقد خيل إليه أنه يستطيع أن يكتب ! أواه ! ما إلى الشعر قصد ، ولا إلى الدراسة النفسية ، بل ولا إلى رواية من روايات المغامرة ، فانه لم يرزق الخيال ولكنه قرأ مونتين وروسو ، كما قرأ دوديه وديكنز (مترجماً) فأراد بيسور القول أن يروي سيرته كما فعل هؤلاء العظماء . لقد قلت لكم أنه متواضع ! فهو أبعد ما يكون من أن يقيس نفسه بهؤلاء العباقرة ، وإنما كان يرمي إلى أن يقتبس منهم الفكرة « الفكرة الحمقاء » بأن يصور نفسه . وكان يرى ان بحسبه أن يوفق إلى كتابة شيء متماسك ، تام ، مقروء . كان يعتقد أن حياته جديرة بأن يعرفها الناس . . أو أولاده وأحفاده على أقل تقدير . ولم يكن ثمة داع

لأن يطبع ما كتب فخلف مخطوطاً .

لقد شرع في الكتابة في شهر نيسان عام ١٩٣٩ خلال عطلة عيد الفصح . يا لذاك الزمن السعيد !

وأمام الصعوبات الجمة التي برزت في تركيب كل جملة ، وفي نهاية كل مقطع ، وأمام الكلمات غير الملائمة ، والتعابير المشكوك فيها والصفات التي لا تدرك ، فقد ترك هذا المجهود الذي يفوق طاقته ، بعد أن ملأ دفتراً مدرسياً كبيراً . لقد ترك ذلك دون غضب ، ومن غير أن ينوي العودة اليه .

كان في صفه مكتب متواضع شديد السواد . وفي أحد أدراجه ، ترقد اليوم التحفةُ المهيضة منسية ، بين دفاتر التفقد وبطاقات تحضير الدروس ، كخامس بيضات قنبرة ، تتركها هي وأولادها باحتقار في العش المهجور .

أيها الإله الرحيم ! ليس هناك انسان سيد مصيره ! فاذا كان كتب في السماء أن يعرف جميع الناس قصة فورولو منراد فمنذا يستطيع أن يخالف مشيئتك ؟

فلنستخرج الدفتر المدرسي من الدرج الأيسر ، ولنفتحه . أي فورولو منراد اننا نصغي اليك .

٢

ان السائح الذي يجرؤ على الدخول الى قلب القبيلة يعجب اعجاباً مرده القناعة أو الواجب بالمشاهد التي يراها مدهشة ، والمناظر التي تبدو له مليئة بالشعر ؛ وتثير فيه عادات السكان تعاطفاً سمحاً في كل حين .

اننا نستطيع ان نثق به دون صعوبة ، ما دام يجد في اي مكان المشاهد المدهشة نفسها ، والشعر ذاته ، وما دام يشعر في كل مرة بالتعاطف نفسه وليس هناك من سبب يحول بين أن يرى الناس في القبيلة ما يرونه تقريباً في كل مكان .

ألف اعتذار الى جميع السياح . فأنتم انما تكتشفون هذه العجائب وهذا الشعر لأنكم تمرون بها مرور السياح . وان حلمكم ينتهي بعودتكم الى دياركم حيث ينتظركم الابتذال على عتبة الباب .

نحن معشر القبائل نفهم ان يمتدح الناس بلدنا ، بل اننا نحب ان يخفوا عنا ابتذاله وراء أوصاف مجاملة ، ومع هذا فاننا نتخيل الانطباع التافه الذي يخلّفه مشهد قرانا الفقيرة في اكثر الزائرين سماحة .

ان (تيسي) هى عبارة عن تكتل ألفين من السكان ، تتسلق منازلها الواحد تلو الآخر ذروة احدى القمم كأنها عمود فقري جبار لحيوان منقرض من حيوانات ما قبل التاريخ ، وهي تمتد مئتي متر

طولاً ، وفيها شارع رئيسي ، ما هو في حقيقة الأمر الا قسم من أحد طرق القبيلة الذي يربط بين عدة قرى ويفضي الى الطرق المعبدة ، وبالتالي الى المدن .

يحتفظ هذا الشارع الرئيسي بعرضه الاصلي في اماكن ليست مسورة الا من جهة واحدة : ويبلغ ستة أذرع على الأقل . وبما أن الناس شادوا البيوت أغلب الأحيان في جهتيه فقد تآكل واصبح يستثير الشفقة في سجنه الحجري . فهو يختنق ان لم يمد من مسافة الى اخرى ، ذات اليمين وذات اليسار ، فروعاً صغيرة جامحة ، هي شوارع صغيرة ضيقة تهرب الى الحقول .

كيف نطلب ، منطقياً ، من شارع يشكل جزءاً من طريق ، ان يختلف عن هذه الطريق ؟ ولماذا يعبد الشارع ان كانت الطريق غير معبدة ؟ ان كليهما اغبران في الصيف ، والشارع أملأ منه بالوحل في الشتاء لكثرة مايطرق وللسبب نفسه هو دوماً اشد منها اتساخاً هذا هو الفارق الوحيد بينهما . أما فروعه فهي تماثله لأنها ابناؤه .

لنتخيل زقاقين متقابلين في مكان ما ، ينطلقان من نقطة واحدة، أحدهما نحو اليسار والثاني نحو اليمين . ان الشارع عريض في هذه النقطة الممتازة . أكان هذا نتيجة مصادفة عجيبة ، أم كان بفعل تصميم افلتت منا مبرراته في الساعة الراهنة ؟ إن اجدادنا لم يبنوا في زوايا المفرق الأربع : فأنت هنا في ساحة القرية الكبيرة « ساحة الموسيقيين »

(جمعتنا) . أنها فريدة ، وإن الحي العلوي ليحسد عليها الحي السفلي .

أن بلاطات عريضة منضدة فوق خمسين سنتمتراً من البناء المضطرب، أمام جدران المنازل ، تؤلف مقاعد (الجُمْعَة) : وعلى هذه المقاعد يجلس الرجال والأولاد . ولقد أنعم على أحد هذه المقاعد بغطاء من الحواجز . والناس تسعى إلى هذا المقعد اكثر ماتسعى لأنه بارد صيفاً ويحمي الجالسين شتاء . وحينما يصل المرء إلى (الجمعة) من جهة الشمال يجد هذا المقعد على اليسار ، مقابلاً تماماً لشارع صغير غير نافذ تسده بوابة أحد المساكن على بعد حوالي عشرين متراً . وهذا المقعد مزدان بأجمل بلاطة .. بلاطة من المرمر ، من المرمر الحقيقي الأشقر اللامع ، قد صقلها الزمن والاستعمال .

إن للقرية ثلاثة أحياء وثلاث (جمعات) بالتالي . ولكل جمعة مقاعدها المجرية وبلاطاتها اللامعة ، وأننا نجد عليها جميعاً رقع الداما الثابتة نفسها ، محفورة على البلاط ، حيث يلعب الناس بالحصى ، ولكن ليس هناك من يزعم ان (الجمعات) الأخرى تضاهي « ساحة الموسيقيين »

هنالك أيضاً مسجدان . وظاهر أن المساجد أقل أهمية من (الجمعات) وإذا نظرنا إلى المسجد من الخارج وجدناه يشبه المنازل الأخرى المجاورة له . أما داخله فأرضه ممدودة بالاسمنت والجدران مبيضة بالكلس . إنه فارغ وبسيط حتى ليثير الحزن ، وإن الشيوخ الذين يمضون ليصلّوا فيه ، يبدو عليهم أنهم ينشمون إلى جيل بائد .

يقع المقهى المغربي خارج القرية ، وعلى الذين يعنيهم أمره أن يذهبوا إليه ، ويخلفوا كتلة المنازل وراءهم .

ثمة منازل مزهوة شيدت حديثاً بفضل المال الذي جلبه أصحابه من فرنسا ، هذه المنازل ترفع واجهاتها الصلفة وقرميدها الشديد الاحمرار بين الخراب العام . ولكن المرء يشعر أن هذا الترف ضمن هذا الإطار لهو ترف في غير موضعه ، وعلى كل فلسنا فخورين بهذا الترف . وتبدو هذه المنازل إذا نظرنا إليها من بعيد بقعاً بيضاء متنافرة مع مجموعة المنازل التي لها لون الأرض . وأننا نعلم أنها تماثل في داخلها سائر المنازل فهي بذلك تستحق المثل المحتقر الذي ينطبق عليها « اصطبل منايل : ظاهره براق ، وداخله مليء بالروث والدواب . »[1]

إن الغرور هو إحدى الرذائل التي نسخر منها أكثر من سواها ، وربما كان ذلك لأننا جميعاً أقرباء أو متصاهرون .

يبدو أن أسلافنا تجمعوا بحكم الضرورة . فقد تألموا أشد الألم من الانفراد حتى قدروا فائدة العيش متحدين حق قدرها . يا لسعادة من له جيران يخدمونه ، يقدمون له العون ، يقرضونه المال ، يغيثونه ، يشفقون عليه ، أو يقاسمونه مصيره على أقل تقدير ! اننا نخشى العزلة كما نخشى الموت .

ولكن هناك دائماً مشاحنات وخصومات عابرة تليها المصالحات بمناسبة

---

(١) هذا يشبه المثل الشامي المعروف : « من الخارج رخام ، ومن الداخل سخام » .

عيد أو كارثة . « إننا جيران لنكسب الجنة لا للشقاق . » هذا هو ألطف أمثالنا . ان جنتنا ليست إلا جنة أرضية ، إلا أنها ليست جحيماً .

وليس من الأهمية في شيء أن يكون لكل حي جده ، لقد احتفل الناس منذ زمن بعيد جداً بالتزاوج بين الأقرباء بحيث أصبح تاريخ القرية اليوم أشبه بتاريخ شخص واحد . ليست هناك طوائف ممتازة ، ولا أسرة تستأثر بألقاب النبالة . إن لدينا عدداً كبيراً من القصائد التي تتغنى بأبطال مشتركين ، ابطال في دهاء اوليس ، واعتداد ترتران وهزال دون كيشوت .

إن سكان الحي السفلي ، مثلاً ، ينحدرون من مزوز ، وكان لمزوز خمسة أولاد ذكور أعطوا أسماءهم كلاً من الأسر الخمس في القرابة . ولهذا فان القرابة تشمل أسرة بني رباح وبني سليمان وبني موسى ، وبني لربي ، وبني قاسي . أما أسرة بشير فان جدهم ليس إلا لاجئاً جاء من جرجورة ، فهم لا يفخرون بأصلهم . ويشعرون في أعماق ذواتهم انهم أصغر شأناً . أما الآن فما من أحد يفكر بذلك . وأصبحوا هم أيضاً يعتقدون أنهم من أعقاب مزوز الحقيقيين . ومع ذلك ففي بعض الظروف الهامة يحدث أن يذكرهم الناس . وان هذا لايحدث إلا حين يتصل الأمر بمصلحة ذات شأن .

وبالإضافة إلى هذا الأصل المشترك أو المتشابه ، فان ظروفنا واحدة ،

لأن قبائل الجبل جميعاً يحيون حياة متشابهة ذات طراز واحد . ليس هناك غني ولا فقير .

لا شك أن هناك طائفتين من الناس : الذين يكتفون اكتفاء دائماً ، والذين يتقلبون حسب مواتاة الحظ أو معاداته من الفقر المدقع إلى الغنى اليسير لمحظيّ السماء . إلا أننا لا نستطيع أن نقيم تصنيفاً نهائياً ، ولا أن نلحظ فروقاً أساسية في نمط حياة السكان .

إن للأسر الغنية عدة أشجار تين ، وبعض شجرات زيتون وهكتاراً من الأرض الصالحة للزراعة ، وينبوعاً من الماء في أحد حقولهم أحياناً . وحين تقدر في (الجمعة) أملاك مثل هذا الفلاح في ، شهر من الحراثة ، نقرأ الإعجاب والحسد في العيون ، غير أن يوماً من الحراثة في أراضينا الوعرة على زوج من الثيران ، هما أكبر من الخراف بقليل ، لا يكاد يشكل عشرين آراً . وإن أكبر المالكين في القبيلة اذن ، يملك ستة هكتارات ولذا فهو يتكلم بصوت عال في (الجمعة) وهو السيد المطلق في بيته أو هكذا يتركونه يعتقد على الأقل .

ولكي يحتفظ بالسلطان والاعجاب ، وهما الميزتان المرئيتان الوحيدتان لثروته فانه يتعب أكثر ممن لا يملكون شيئاً ، فهو يعمل مع عماله ليكون قدوة لهم ، ويأكل ويلبس كما يأكلون ويلبسون ، غير انه يشبه مرابي الحكاية في انه لا يقاسمهم همومهم .

انه يملك بعض الماشية : زوجين من الثيران وبقرة ، وبعض الخراف

وبغلاً أو حماراً .

وقد يتألف بيته من حجرتين متقابلتين (يشغلان اثني عشرة ذراعاً عرضاً وأربعة عشر ذراعاً طولاً .) وغرفة أو غرفتين صغيرتين للبكر من الأولاد أو للغريب العابر . ان جميع المباني مشيدة من الحجارة المنضدة يربط بعضها ببعض ملاط من الطين . أما السقف فمصنوع من القرميد الأجوف يقوم على سرير من الأغصان ، وخشب الأرض مغطى بطبقة من الكلس المصقول المضيء الضارب لونه إلى الصفرة وهو لهذا يعطي مظهر النظافة والأناقة القروية ، لا سيما حين يكون الكلس جديداً . وإن ذوات الذوق من ربات المنزل يملطن بهذه الطريقة نفسها في كل غرفة ، اسس الحيطان على ارتفاع متر ، ويحدّدن هذه الاسس باطار أخضر غير منتظم يصنعنه من عنب الثعلب المسحوق . وتطلى أعالي الحيطان إلى ما تحت بالسقف بالطين الأبيض الذي لا يحصل عليه إلا بشق النفس . أما ترتيب داخل البيوت فمنوط بربة البيت . إنه مصدر ألمها وفخارها . ويتجدد تطيين البيوت دورياً وفق بجوحة الأسرة ، مرة كل سنة أو كل سنتين أو كل ثلاث سنوات .

في الحجرات الكبيرة ، ثمة قسم منخفض مبلط يستخدم كاسطبل ومعلف ومخزن للحطب ، وتفصله عن القسم العلوي عمد مربعة تحمل السقيفة ، وفي السقيفة توضع خوابي المؤونة وجرار الزيت وخزائن الأسرة . أما القسم العلوي من الحجرة فيؤلف المسكن . ويتأرجح

الفراش أثناء النهار على امتداد عصا معلقة على خشب السقف . ويوجد الكانون في أي مكان قرب الجدار الذي يواجه الاسطبل ، وفوق الموقد عارضتان متوازيتان تصلان الجدارين الآخرين أحدهما بالآخر . وتحمل هاتان العارضتان أشياء مختلفة : ففي الشتاء تبسط عليها حصيرة ملأى بجوز البلوط الذي تحفظه حرارة الكانون ، وبحطب غض يجف على مهل على بعد مترين من النار ، وبلحم خروف العيد الذي يتخذ دهنه حرافة السمك المدخن .

وليس للحجرات الصغيرة شيء من هذا كله ، فهي تمثل بساطة مستطيل دون أن يكون لها انتظامه . إن ملاطها من الكلس أشد ضياء من الحجرات الكبيرة ، لأن الدخان فيها أقل . فهم لا يوقدون النار فيها إلا في بعض ليالي الشتاء .

الباحة صغيرة على وجه العموم ، ويقوم أحياناً فوق بوابة المدخل برج للحمام يرقى إليه بدرج متواضع أو سلم غليظ ، وتلك غرفة إضافية وفي الاسفل على جهتي البوابة بني مقعدان واسعان ، تطليهما ربة الأسرة بالكلس في أعوام الخصب .

هذا اذن هو التعداد الدقيق لعلائم الغنى الخارجية . وليس ثمة غيرها . لا ترف البتة لأن الناس جميعاً يعلمون أن الغني بخيل ، بخيل لأنه يحفظ ماله بحرص ويزيد فيه اذا اقتضى الأمر ، إذ أن البخل صفة أساسية كي يغتني المرء ويحافظ على غناه . ليس هناك من يحقد على البخلاء

بل هم ، على نحو ما ، يثيرون الاعجاب .

إن الأسر الفقيرة في القرية تحيا حياة الأغنياء حين تستطيع أو أنها تأمل ذلك .

ليس للفقير أراضي ، أو له قسم ضئيل جداً منها ، قسم يشغله أوقات بطالته ، ويقتصر مسكنه على حجرة واحدة ، وهو يقتسم الباحة الصغيرة مع جيران لا يقلون عنه فقراً ، كما يقتسم الجمعة مع جميع الناس . وليس من عادة الفلاح أن يقضي أوقات راحته في المسكن الحقير بين النساء والصبيان . ان الجمعة لملجأ مضمون ، مجاني ، في متناول اليد في كل حين . أما المقهى المغربي فلا يغري إلا الشبان والكسالى .

يستطيع الفقير أن يقتني حيوانات كالغني ، حيوانات لم يشترها ، ولكنه تسلمها من غيره . إلا أنه يقتطع جزءاً من الربح حين تباع هذه الحيوانات . في امكانه أن يعمل أثناء النهار . إن الفقير يعمل ليحيا حياة أفضل ، وهو يسعى ليعيش كما يعيش جاره الغني ، بينما يسعى جاره هذا ليحاكيه في معيشته ، وسرعان ما يختلفان . فقد يحدث غالباً أن تحسد امرأة الغني جارتها الفقيرة على زينتها ، وأن يحسد أولاده رفقاءهم الفقراء على حظهم ، وهذا لا يدوم طويلًا اذ يكفي أن يمر شتاء ماطر أو يلم مرض أو نفقة غير متوقعة ، أو رحيل رب الأسرة إلى فرنسا واخفاقه أو انصرافه عن الاهتمام بالأسرة لتسوّى الأوضاع . إن الغني يظل بخيلًا دائماً ، والفقير لا يبالي أو يشتهي بؤس الغني .

وعلى الإجمال فإن الناس في (تيسي) يعرف بعضهم بعضاً ويتحابون ويتحاسدون ، ويقود الواحد منهم مركبه وفق استطاعته . ولكن ليس هناك طبقة ذات امتيازات ، وكم من فقير راح يجمع المال وأصبح غنياً ؟ وكم من غني افتقر بسرعة قبل أن يتهدم على يد سعيد المرابي الذي يحترمه الناس جميعاً ويخشونه ويمقتونه . سيأتي دوره ، لاشك ، وسيموت شحاذاً . ليس للقانون من استثناء . إنه قانون إلهي . وعلى كل منا ، في هذه الأرض ، أن يذوق الفقر والغنى ، وأن الشيوخ ليؤكدون بأن الإنسان لا ينهي حياته كما بدأها . ألا كم يعرف الشيوخ من أشياء !

٣

كان منزل أهلي في أقصى شمال القرية في الحي السفلي ، واننا من قرابة بني مزوز من اسرة بني موسى ، ومنزاد كنيتنا .

كان أبي يدعى رمضان ، وعمي لونيس ، ولكن جرت العادة في الحي أن يدعيا بابني شعبان . ولست أعلم بالتحقيق لماذا . لقد تيتما في سن مبكرة جداً ، حتى أن أبي لم يعرف جدي قط . وكان يجب أن يدعوهما بابني تساديت جدتي . وكان اعمامهما واولاد الاعمام يفضلون ، لاشك ، ان يحتفظ باسم شعبان لكي يظهروا للملأ أنه كان لليتيمين من يُعنى بهما ، وانهم كانوا يحلون ، عملياً وحقوقياً ، محل اخيهم الذي توفي . وكانت وجهة النظر هذه حميدة في البدء ، ولكن الطفلين أصبحا رجلين بعد ذلك . وكان هذا الاسم يقلل من قيمتهما قليلاً لأن الناس لم يكونوا يتحدثون عنهما الا كما يتحدثون عن شخص واحد . ومع ذلك فلم يكن أحدهما يشبه الآخر .

كان عمي لونيس ذا تقاطيع ناعمة ، ونظرة ساخرة ، ولون أبيض ، وكان دقيقاً ونظيفاً . انني ما أزال أراه وهو مرتد سترته البيضاء وعمامته مكورة بعناية . وقلما تخيلته حاملاً معولاً في يده ؛ وحول خصره زنار ذو مسامير مذهبة . كان هذا يحدث له بعض الأحيان .

وعند ذاك كان يستعمل الاداة من غير حذق ويبدي ارادة هزيلة ويتهاون في عمله . لاشك انه أحسن حالاً في (الجمعة) . إن الناس يعرفون انه صريح وعصبي المزاج ، وعبارته حية ، وحقده نار قش . كان من بين شبان القرية أكثرهم اناقة . ولهذا السبب فقد كانت امه تؤثره بحبها ، وإلى هذا فقد كان البكر ... وكان يحلو لجدتي ان تكرر أنه ساعدها في تنشئة رمضان الصغير . بيد أن المرأة المسكينة ، في الحق ، لم تستطع يوماً أن تعتمد عليه . ومن البديهي ان حب لونيس قد ملك عليها امرها . لقد منحته بنية حسنة . وكانت هـــذه أولى هداياها ، فقد وُلدت في ابنها البكر من جديد : الابتسامة نفسها . والوجه البيضوي نفسه . ونبرة الصوت ذاتها .

أما رمضان فقد كان يشابه شعبان كل الشبه ؛ ربما أراد القدر أن يمنحه بعض العزاء حين أتاح له سبيلاً يسيراً في أن يتخيل أباه . كان رمضان ربعة ، اسمر اللون ، أصلب من أخيه عوداً . انه نموذج لفلاح القبيلة الاعجر الشديد العضل . أما وجهه فقد كانت جدتي تكرر أنه وجه شعبان نفسه : جبين مربـع ، وأنف صغير اخنس ، وشفتان رقيقتان ، ووجنتان عريضتان ؛ وله أيضاً نظرة أبيه وحركته العصبية التي تجعله يغمض عينه اليسرى حين ينظر اليك . ولقد حاولت جـدتي عبثاً ، ان تصرفه في طفولته ، عن هذه العادة السمجة ، وعن طريقته في المشي بتثاقل كالدب ورجلاه مقوستان . كانت هذه المشية تعطيه ،

في كل خطوة يخطوها ، مظهر من يجابه خصماً أو يرفع حملاً . ولقد نظرت اليه جدتي دائماً نظرتها الى بليد قليل المطالب . لم يكن ثرثاراً كأخيه ، ولكنه كان خجولاً حتى قلة الأدب . منطوياً على نفسه ، تظهر البلادة في ذهنه كما تظهر في تصرفاته .

كان يبدو أنه لم يخلق إلا للعمل في الأرض وقد قبل دوره بدون اكتراث . ولم تكن أصابعه الكبيرة لتمنعه من أن يعزف على الناي عزفاً جميلاً . إلا أن اترابه من الشبان كانوا وحدهم الذين يعرفون ذلك . كان يحب امه وأخاه حباً جماً ، ولكنه كان يخفي حبه في أعماقه كما يخفي ضعفاً فيه . وكانت له طريقة مجازية في السخرية من غير لؤم بالناس والأشياء . وكانت تلك الحقيقة . وكان الناس ، على العموم ، يحبونه بمقدار مايحبون اخاه لأنه كان بسيطاً وشريفاً .

ولمّا وُلدت كان عمي يقارب الخمسين من عمره وأبي يقارب الأربعين، وكانا متزوجين ولهما أولاد .

ينحدر أصل حليمة ، زوج عمي ، من الحي العلوي . وهي امرأة ضخمة الجثة ، جافة ، مستقيمة العود ، لها عينان براقتان ، وصوت أجش ، ويد ملساء ، ومشية مخادعة . وسرعان مافرضت نفسها على العجوز تساديت ولم تلبث أن اخافتها . ولقد اعتاد عمي أن يضربها دون أن يتوصل الى أن يجعلها تخشاه . وكان أبي عدوها اللدود لأنه كان يحبط كل حيلها . وكنا نعلم ، في الاسرة ، انها حصدت لعنة

جدتي . وكنا نتحمل مرارتها .

ومع هذا . فإن العجوز هي التي اختارتها . كان والد حليمة ، وهو صديق قديم لجدتي . قد رافق كخفير حملة مدغسقر ، وعاد ومعه شيء من المال ، فظنته جدتي ثرياً جدا . وخيل اليها انها ستجد فيه سنداً لولديها . إلا أنها لم تغفر لنفسها قط غلطتها . اذ ما ان أطمأن الجندي الشيخ على مصير ابنته حتى مات دون أن يخلف لها الا مدالية ذهبية مع شريط من الحرير الأخضر . ووقعت هذه المدالية فيما بعد بين يدي .

إن امي من اسرة بني موسى ، فهي إذن بنت عم اسرة منراد . ولقد اختارتها جدتي أيضاً وفق مصلحتها . ذلك بأن أحمد ، جدي لأمي ، أوصى لبناته الثلاث قبل وفاته بحقل ومنزل صغير . فترك وصية شرعية .. هذه الورقة التي اسودت قليلًا ، غير أنها بقيت متينة ، ما تزال إلى الآن مطوية على أربع ومغلفة في قطعة قماش في وعاء في الأرض مغلق بسدادة من الفلين . إنها هبة « ثابتة ونهائية » ، وإن أمي لتذكرها جيداً ، ولكن حين جاء دور الفتوى ، فإن الشيخ الذي فسرها شرح للوارثات ان ليس لهن حق إلا في حق الاستثمار . لا شك أن القاضي لم يفهم رغبة الميت فهماً صحيحاً ، فسجل رغبة اخوته . ولم يكن لذلك كله من أهمية لان اعمام أمي وخالاتي الذين تقاسموا الحقول الاخرى لم يزعجوهن ، ذلك لأنهم سيأخذون بقية الإرث بعد موتهن من غير مشاكل .

كان جدي أحمد أرمل . ولم يكن يجهل أنه لن يكون لبناته معين . ولكنه لم يجرؤ على إعطائهن أملاكه قبل وفاته . ولو أنه فعل ذلك لكانت تلك هي الطريقة الوحيدة التي يحفظهن بها من الفاقة ، كان يخشى على أمواله أن تصبح فريسة سهلة بين أيدي النساء ، كان يأبى أن يعرض ذكراه للخطر ، لتعيير الأحياء والأعقاب من بني موسى . لم يكن يشاء أن يقيم آخرون في أرضه حتى ولو كانوا أصهاره أو أحفاده . آه ! نعم ، لو أن واحداً من أولاد أبناء عمه وهو من أسرة موسى مثله ، تزوج احدى بناته لكانت الأمور قد سويت في حياته – إلا أنهم لم يريدوا ذلك – ولعلي لا أستثني إلا أبناء شعبان . وأحقر بها من صفقة ! وكثيراً ما كان ذلك يوغر صدر جدي عليهم . ولكنه في أيامه الأخيرة رأى أن من الحكمة أن يترك لهم أراضيه لكي لا يفصل بناته عن الأسرة الكبيرة .

كان يقول في نفسه :

– سأترك الدنيا ، ولن يقول أحد أنني أسأت إلى أقربائي ، فعليهم تقع تبعة الشرف أو الخزي وليس إلا أن يختاروا .

إي والله ! لقد اختار آل موسى الشرف ، لم يريدوا ان يحمل اليهم البنات العار .

ذلك بأن نية الشيخ السيئة كانت واضحة ، لأنه حاول أن يعطي المنزل وأحد الحقول « نهائياً » وكان القاضي لبقاً والحمد لله . وما عدا

ذلك فلم يكن من الضروري سلوك سبل ملتوية .

كانوا يقولون للفتيات :

– حاولن أن تتغلبن على الحياة ، ولكن ضمن حدود الشرف ، لأن أقل انحراف تقمن به قد يلطخ اسمنا بالعار . ولسنا نريد ان ندفع إلى معاقبتكن . انتن تحت سلطاننا ، فاسلكن باستقامة ولن نهتم بما عدا ذلك .

إن من المتعارف عليه حين ينتقل الإرث إلى أحد الأقرباء أن يتعهد هذا الأيتام ويزوجهن ويرعاهن . أما اسرة بني موسى فقد كانت من الكثرة والتحاسد بحيث لا تماشي هذا العرف . كانوا يرغبون جميعاً في الارث ، وتعهدوا معاً بالعناية بالايتام . وقاموا بهذا التعهد في حدود مراقبة البائسات مراقبة دقيقة .

وحين رأت الفتيات أنهن مراقبات هذه المراقبة ، وأنهن يُسمن أحياناً سوء التصرف شعرن برضى عن أعمامهن ، لأنهن اعتقدن في الوقت نفسه ، أنهن مصونات . وكن يفضلن هذا على اللامبالاة أو على الأهمال الذي يصحبه الازدراء دائماً . لقد كن فتيات طيبات يحملن أفكاراً ثابتة . كن يرضين بأن يخدعهن أعمامهن وأن ينزعوا منهن أموالهن على الا يبعدن عن الجماعة وان يحتفظن بحقهن في حمل اسم الأسرة .

وكانت جدتي تساديت أكثر العمات اهتماماً باليتيمات ، فكانت تحادثهن بلطف وتنصحهن أغلب الأحيان ، وسرعان ما اعتدن ان يستشرنها في كل الامور .

لم تكن فاطمة ، كبراهن ، قد بلغت العشرين ، ولم يكن رمضان قد تزوج بعد . فرأت جدتي أن تقرن بينهما . لم تكن فاطمة قبيحة المنظر : كانت صغيرة القامة ، ضعيفة ، صفراء اللون ، ذات وجه فيه شيء من الطول ووجنتين بارزتين . الا ان لها نظرة جميلة تملؤها كآبة عذبة ، لم يكن لها ما لغيرها من الفتيات من السلوك القاسي المتعجرف . كانت بسيطة وساذجة ، ولم تكن تجيد طبخ أي طعام باستثناء الكوسكوس . ولقد عانت جدتي المشقات لكي تجعلها تقبل برمضان زوجاً لها . وأذعنت فاطمة عندما تحقق عندها ان جلد الدب الكبير يخفي تحته كثيراً من القوة ونشاطاً في العمل وحظاً كافياً من الحس السليم . وفكرت انه قد يغدو في الوقت نفسه وصياً على أختيها . وتم الزواج على نحو متناه في البساطة . وتعهد لونس ورمضان بحماية اليتيمات ، وشعر جميع ابناء العم برضى عن هذا العمل .

أعتقد أن جدتي لم تتشك أبداً من أُمي . كانت فاطمة تعيش في كنفها ، وكانت العدوة اللدودة لحليمة . كانت العجوز تساديت في وضع لا يخلو من غرابة ، فهي تحب لونس اكثر من رمضان ولكنها كانت تفضل فاطمة على حليمة . ولعل هذا ما يفسر لنا أن الأسرتين استطاعتا أن تعيشا معاً مدة طويلة ، وأن جدتي استطاعت ان تسيّر امور المنزل بحياد نسبي .

من المعروف ان الناس في بلادنا نظاميون في حياتهم العائلية على

الاقل . ونحن جميعاً متفقون على استهجان التبذير ، ولهذا فان كل أسرة تخضع لمسؤول . والمسؤول يتصرف بالمؤونة ويحدد كمية الطعام ، كما يشاء ويقرر طريقة استعمال المدخر ، وما يجب أن يشرى أو يباع . وان الناس ليأخذون عليه ، بعض الأحيان ، أنه يخص نفسه بما لا يخص به غيره ، ولكنه الحسد دائماً . لقد قدس العرف فضائل رب البيت أو ربته . وأن عدداً من الأمثال التي لا تقبل الجدال تقر بفضلهم .

كانت جدتي هي التي تعنى بالمعيشة في أُسرة منراد ، فهي وحدها التي تفتح أو تغلق الخوابي ، وكانت لها طرائقها الخاصة في استعمال كل من أدوات المطبخ ، وأسرارها في رفع الغطاء أو وضعه . وثمة علامات خفية يمكن أن تثير انتباهها ، وكانت كنتاها تعرفان كيف تحملان النفس على الرضى .

كانت السقيفة منطقتها ، فهي وحدها التي تدخلها . فكانت ترقى إليها لتأخذ قسماً من التين ، أو تملأ غربالاً من الشعير أو تسكب الزيت والشحم ، كانت لها مكاييلها وحسابها الشخصي وذاكرة أمينة ، ولم يكن لحذرها أن يخطيء .

كانت المرأتان تهيئان الطعام ، ولكن ما أن يُطبخ الكوسكوس حتى تتولى هي سكبه في الصحون . ليس غير اللحم كانت تترك توزيعه لإبنها البكر ؛ ذلك عمل الرجال . ولما كنا لا نشتري اللحم إلا في الأعياد ، فإن جدتي هي التي كانت تقوم بإطعام الأسرة ، شأنها شأن

دجاجة تزق فراخها .

لا شك أن مثل هذا العمل يتطلب مقدرة كبرى لأن الناس يعلمون أن أهل القبيلة لا ينعمون بالرخاء غير أنهم إذ يفوضون دائماً أكبرهم سناً أو أجلّهم قدراً ، فإنهم يطمئنون بشكل عام إلى نصيب الآخرين ، ويثقون بأنه يقوم بواجبه ، باهتمام مستمر بالمصلحة العامة .

٤

ولدت عام ١٩١٢ قبل قرض تبراري[١] المشهور بيومين ، هـذا الشهر الذي قتل وحجّر ذات يوم عجوزاً في أعالي الجرجرة والذي ظل دائماً مصدر فزع للمعمرين من أهل القبيلة .

ولمّا كنت أول صبي صالح للحياة ولد للأسرة فقد اتخذت جدتي قراراً جازماً بتسميتي فورولو (من وفر : خبّأ) . وهذا يعني أنه لن يستطيع انسان في العالم أن يراني ، خبيثة كانت عينه أم خيرة ، إلى اليوم الذي أستطيع فيه أن اجتاز بنفسي على قدمي عتبة بيتنا .

وقد تعجبون إذا أضفت إلى ذلك أن هذا الإسم ، رغم تمام جدته ، لم يحمل أحداً من الأطفال لداتي على الهزء مني ، لشد ما كنت لطيفاً محبوباً . وإني لأجد حولي دائماً ، إمّا عدت إلى أبعد ذكرياتي ، صداقة حارة وساذجة . ان أبعد صورة تبرز في ذاكرتي هي صورة فتى صغير جالس في باحتنا الصغيرة فوق حجرة مقلوبة : وابنة عمه (شهبا) منتصبة أمامه تعد على أصابعها الخمس الأشياء الطيبة التي تريد أن تطعمه إياها .

---

(١) تبراري : (شباط) لقد أقرض شهر شباط يوماً من أيامه كانون الثاني الذي أراد أن يعاقب احدى عجائز جرجوره ، ويسمى هـذا اليوم (أمرديل) القرض . (المؤلف)

انني أتخيل نفسي على هذه الصورة وأنا مرتدٍ سترة صغيرة بيضاء لها قبعة ، لا أكاد أستطيع المشي ولكنني اثرثر كما أشاء ، ولعلي كنت في الثالثة من عمري .

كان أبي وعمي في عداد فقراء الحي . ولكنهما لم يرزقا إلا البنات ، ولهذا فقد كنت في منزلي أسعد من بقية أترابي في منازلهم .

والحق أن حليمة زوج عمي التي يستحيل عليّ الآن أن أدعوها خالتي ، لم تكن تطيق رؤيتي . أما أمي وأخواتي وخالتاي – خالتاي الحقيقيتان – فقد كنا يعبدنني . كان أبي ينزل عند جميع رغائبي ، وجدتي التي كانت قابلة القرية تلقمني ، رغم أنف حليمة ، كل المآكل الطيبة التي كان الناس يعطونها إياها ، أما عمي الذي كان يعرف قيمة الرجل في الجمعة ، والذي كنت أمثل في نظره مستقبل آل منزاد فقد كان يحسبني كابنه ، وكان هذا أكثر مما ينبغي لتنشئة طفل تنشئة حسنة .

ومع هذا ، فينبغي أن أقول أن الجهود المتضافرة التي بذلتها الأسرة كلها لم تؤد إلى النتيجة المتوخاة : ذلك بأنني كنت الصبي الوحيد في المنزل . وكان مقدراً عليّ أن امثل قوة الأسرة وشجاعتها .

ياله من قدر جسيم بالنسبة للرجل الصغير الحقير الذي كنت ! ولكن لم يدر بخلد أحد أنني استطيع أن أتحلى بصفات آخر أو أن أخيب هذا الأمل .

كان في مقدوري أن اضرب ، من دون ذنب ، اخواتي وبنات

عمي في بعض الأحيان : فقد كان عليّ أن أتعلم كيف اكيل الضربات ! وكنت أستطيع أن أتصرف بفظاظة مع كل الكبار من افراد الاسرة دون أن اثير الا ضحكات الاستحسان وكان عندي كذلك قابلية لأن اكون سارقاً كاذباً سفيهاً . وكانت هذه هي الطريقة الوحيدة التي تجعل مني صبياً شجاعاً . ليس هناك من يجهل أن قسوة الأهل تنتج بالضرورة صبياً فزعاً ضعيفاً لطيفاً رخواً كالبنت . وليست هذه بالمقومات التي يحتاج اليها ابناء جدي شعبان .

لقد بالغت في الاستفادة من حقوقي منذ الخامسة من عمري ، واذ ادركت اهميتي منذ الخامسة من عمري فما لبثت أن أسأت استعمال حقوقي وسرعان ما استبددت بصغري اخوتي تلك التي كانت تكبرني بسنتين . كنت أدعوها تيتي — وظلت تحمل هذا الاسم — لم تكن هذه تكبرني ، وكانت تشبهني كما تشابه الاخت الصغيرة أخاها ، اي يستطيع المرء أن يتعرفها من منديلها وجديلة شعرها الطويل . وكانت على قدر من الطيبة يتيح لها أن تتحمل ضرباتي وتتقبل سخرياتي بحلم قلما وجد عند طفل في مثل سنها . ولم يكونوا يتأخرون في أن يدخلوا في روعها أن لطفها واجب عليها ، وأن موقفي حق . وكانت تسمع كلما تشكت مني الجواب نفسه : « أليس هذا أخاك ؟ ما أسعدك في أن يكون لك اخ ! حفظه الله لك ! كفي عن البكاء وامضي فقبليه . »

وبفضل هذه الطريقة انتهى بها الأمر إلى ان تعتقد بعدم فصل

التعبير « حفظه الله » عن اسم الأخ ، وكان من المؤثر أن يستمع المرء اليها تقول لجدتي وهي تبكي :

– إن اخي – حفظه الله – هو الذي أكل لي حصتي من اللحم ، واخي – حفظه الله – مزق منديلي .

لقد حقق الله املك ، أيتها الاخت الصغيرة التي أصبحت الآن ربة اسرة ، فقد حفظ الله لك اخاك السيء .

وكنت أطغي على اختي الكبرى (بايا) على نحو آخر . كانت بايا تساعد امنا . وكانت تعرف كيف تتصرف إذا اقتضى الأمر . كانت ذكية وجريئة وعنيدة . ففرضت نفسها بقوتها ونجحت في اكتساب الاحترام واثارة الخوف . كانت بايا مكلفة بالسهر عليّ خاصة وبتسليتي . ولم اكن لاتيح لها ذلك بسهولة . ولقد أدركت بسرعة بأنني إذا بكيت حصلت على كل ما أريد . كانت الدموع والصرخات سلاحي الذي لايفل .

ولكن هذه الحيلة التي نجحت نجاحاً باهراً في اسرتي . سببت لي اخفاقاً كبيراً ، وكثيراً من المكاره في الخارج . لقد انتحبت كثيراً ، فكانت بنات عمي أول من اعلمني ان الناس ليسوا مجبرين جميعاً على ارضائي . وامهن التي كانت تكرهني . كأنني تعريض بها خطت لهن خطة من السلوك مكشوفة ، نحوي .

– ليس هذا أخاكن ، فليس لكن من اخ !

وكانت اللهجة التي تقول بها هذا تعني ، دون شك ، انني كنت عدواً . انني ما ازال اسمع صوت حليمة وأرى نظرتها الشريرة . ولقد فهمت في سن مبكرة جداً كراهيتها .

ثمة صبيّان صغيران من اولاد الجيران في مثل سني أو يكبرانني بقليل ، ولكنهما اكثر يقظة مني على كل حال كانا يردانني الى الواقع هما ايضاً كلما وجدا إلى ذلك سبيلاً .

لذا فقد سلكت مع جميع جيراني وجاراتي السلوك الوحيد الذي استطيع ان اسلكه : ذلك بأن أكون لطيفاً ، محبوباً ، صبوراً . كنت اعرف كيف امتدح اكثرهم جرأة ، وكنت اعطيهم أو اعيرهم ، دون كبير عناء ، ما كانوا يطلبونه مني . ورأى اهلي ان حلمهم في جعلي أسد الحي . واسد القرية من بعد ، اخذ ينهار شيئاً فشيئاً .

كنت الى حساسيتي المفرطة شديد الخوف حين اتجول خارج حينا . ان صديقي (عقلي) ما يزال يذكر إلى اليوم ، كتلة من الصوان بيضاء كلها ، تقوم في نهاية الحي . وما أن اتجاوز هذه الصخرة حتى اخضع خضوعاً آلياً لأوامره . كان اصدقاؤه اصدقائي ، كنت اتجنب اعداءه وكنت تابعه الوضيع . كان يحميني حين يستطيع ذلك . أو يتقبل بأمانة مسؤولية الرئيس ، معرضاً نفسه للضربات . ولم يكن يترك لي أن اجابه أحد الخصوم إلا حين يكون امامه خصم أشد خطراً منه . وعندما نعود إلى منازلنا كنت استعيد عنفواني حال اجتيازي الحدود

الخطرة[1]. فكان آنذاك مرغماً على الخضوع لكل نزواتي ، والله يعلم كم كانت تلك النزوات غريبة .

وإذا كنا نقوم بصنع الألعاب ، فقد كان بحاجة إلى نصائحي ورضاي بعد أن ينتهي العمل . وكنت ، غالباً ، احطم بحركة مفاجئة ثمرة اجتهاده ؛ فكان يمص آنذاك أصابعه التي جعدتها الحاجة ، ويتقبل قراري من تلقاء نفسه برحابة صدر جديرة بالثناء .

كان يحس احساساً غامضاً بأنني افوقه ذوقاً وخيالاً ، أما أنا فكنت مرغماً على التسليم بأنه اقدر مني على فرض احترامه في الخارج . فكنا يكمل الواحد منا الآخر وفق المرام . لقد دخلنا العالم معاً . في جمعة الحي اول الأمر ، ثم في الجمع الأخرى ، واخيراً في المدرسة .

في اية فترة ، وفي اي ظروف ولدت صداقتنا ؟ انني لا استطيع ان احدد ذلك . ففي ذاكرتي ان فورولو الصغير وهو في الخامسة او السادسة من عمره كان يحقره (عقلي) دائماً . كنا نسكن الحي نفسه ، ولا شك أنّا فيه تعارفنا . ومع هذا فلا شيء يفسر تعلق احدنا بالآخر . كان هناك اطفال آخرون ، ولكن لم يكن بينهم من يؤلف زوجين من الاصدقاء مثلنا .

كان (عقلي) جميلًا كفتاة صغيرة ، وعربيداً كالعفريت . ولم يكن يتحلى بشيء من لطفي ولا من هدوئي . كان يحب الضحك والضرب

---

(١) الحدود التي نشير اليها كتلة الصوان البيضاء ، وسبق ان ذكر خوفه عند اجتيازها .

والنكد . لم يكن يخشى الكبار الذين كانوا يغفرون شيطنته لعينيه الجميلتين وبشرته البيضاء . وتقاطيعه الناعمة المنتظمة . أما أنا فقد كنت أخجل منهم . وهذا ما كان يجعل الناس يحترمونني بقدر ما كانوا يحترمونه لشجاعته. كانت قبضتاه وقدماه كبيرة جداً ، ولكنه كان يؤكد لي أن ذلك ضروري للقتال أو للهرب . كنت أعجب بعقلي واحبه لأنه كان يتحلى بكل ما كان ينقصني . واحسب أنه كان يتعلق بي للأسباب نفسها .

لا أذكر كم لزمنا من الوقت لكي نكتشف الحي ونتعرف على جميع الأولاد ، ويتعرفوا إلينا . وعلى كل ، فقد اجتزنا هذا الإمتحان الأول بنجاح . كان هناك أطفال يستطيع الجميع أن يضربوهم . — يمكن أن يضربوا أو يسخر منهم — وكان هناك غيرهم ممن يمكن السخرية منهم ، وكان يكفي ان تدعو بعضاً منهم بلقب ما حتى تراهم قد تركوا اللعب واختفوا . أما نحن فلم تكن تصيبنا اي من هذه المنغصات . بل لقد انتهى الأمربنا الى أن نفرض صفاتنا المحترمة : ففرض هو شجاعته ، وفرضت أنا ذوقي ونشاطي .

وسرعان ماذهب عني الخوف من الخروج وحدي والذهاب الى الجمعة بل والوصول إلى أطراف المقهى الذي يرتاده خاصة الأشقياء الذين يبحثون عن أعقاب السجاير . وحين كانت ابنة عمي (شهبا) تطلب إليّ أن ألعب معها كنت اجيبها بشيء من الزهو بأن هناك مشاغل اكثر أهمية ورجولة تدعوني إلى الابتعاد عن المنزل ، فكانت تطاطيء رأسها

مقهورة وتكف عن الإلحاح .

وكان يحدث ، مصادفة ، في اليوم الذي أترفع فيه عنها أن ألاقي من يهددني أو يثيرني أو يمنعني من دخول (الجمعة) فأعود إلى البيت بأسرع مما كان في نيتي ان أعود . فأرتضي آنذاك بضعة أن ألعب مع (شهبا) والفتيات الأخر . وكنت أمتنع عن ذكر سبب عودتي المفاجئة . فأحاول أن أتناسى جبني أو أكف عن التفكير بالضربات التي كيلت لي .

لم يحدث لي قط أن طلبت حماية أهلي حين يكون خصمي في مثل سني : فكنت إما أن أقبل المنازلة . أو أهرب إذا ما خفت منه . كنت اخفي الهزيمة والاخفاق بعناية . ولم أكن أتحدث إلا عن انتصاراتي . ولا شك انه لم يكن هناك ، باستثناء امي ، من يقبل مساعدتي ، لا أبي ولا عمي ولا أي فرد آخر من أفراد أسرتي . فقد كانوا يدهشون قبل كل شيء إن رأوني أتقهقر ، ثم لعلهم كانوا يرغمونني على مجابهة خصمي . ولقد حدثت لي مثل هذه الأشياء ولا سيما مع عمي . وحين كنت أنتصر في احدى هذه المعارك التي لا مبرر لها ، فقد كان الجميع يهنئونني . وحين كنت أنهزم فقد كانوا جميعاً يسخرون مني .

اوه ! لقد كانوا في تلك الآونة أبعد ما يكونون عن تدليلي ، كنت أقرأ الازدراء في وجوههم ، ما خلا وجه امي العذب العاطفي . وفي

الحق فلم يكن عند امي من ادعاءات إلا أنها تحبني فوق كل شيء .

لقد شعرت لفترة طويلة بخوف محترم امام منطق عمي الحالي من الشفقة . لقد كان صلباً . وكانت هناك ، بالنسبة اليه ، ثلاث حالات ، فاما أن يكون خصمي اصغر مني أو في مثل سني أو اكبر مني .

فاذا كنت اجابه من هو أصغر مني فقد كان يسمح لي بأن أؤدبه شريطة أن اختبيء أو أهرب بعد ذلك . فاذا جاؤوا يتشكون مني ، فقد كان عمي يبحث عني ليعاقبني ، وكان يعزي الطفل ، متجنباً العثور علي ، واعداً أهله بمعاقبتي .

اما اذا كان الأمر يتعلق بصبي في مثل سني ، فلم يكن ثمة سبب لأن أخشاه . كان عمي يبين بغضب ان الغلبة في جانبي : كنت أفضل تغذية ، اذن فأنا أقوى أو « ان أباه لم يختصم قط » — فلا يجوز لأحد أولاد منزاد أن يتراجع أمام ابن أحد الجبناء . أو انه « ابن ارملة » — وهو قليل الشجاعة بالتعريف . او إنه اخيراً « صبي من صف الأعداء » . ولم يكن يُسمح بأية هزيمة أمام أحد الاعداء .

كنت أعترف ضمناً بقوة كل هذه المبررات دون أن أجيب بشيء وكنت اذعن لوجوب الشجاعة .

ومقابل ذلك ، لم يكن يسمح لصبي أكبر مني أن أن يضربني أو يناكدني ، وكان هذا يتيح لي شيئاً من الانتقام من عمي . فحول هذه النقطة الأحيرة كنت أسرد له بدقة كل ما جرى لي . فاذا ما سرق

مني صبي كبير الدحى كنت أعود الى المنزل وأنا انتحب على نحو مستمر . وأشكو امري . فينهض لونيس ويجري خلفه ويصرخ ويتوعد ويصفعه احياناً بينما اجري معه من غير ان افارقه وانا انتحب دون توقف . يا لهذا العم الشجاع ! لقد كان طفلا اكثر مني . كم مرة جعلته يركض من اجل توافه ! لاشك انه غفرلي في ظلمة رقاده الطويل .

٥

من الجلي أن عمي لم يكن مخطئاً حين اراد أن ينشئني تنشئة الرجال . ولكنه كان يبالغ في حماسته وفي تحيزه لذلك . وأنا لم افد من دروسه الا قليلاً . وأن احد دروسه ، وقد كان مفجعاً اكثر من غيره أيد طريقتي في النظر الى الأشياء ، واستطعت أن اقدر ، وأنا فتى ، ثمن الهدوء .

كان ذلك في الصباح ، خلال موسم التين . وكان الفلاحون قد ملؤوا اولى سلالهم بأوراق الدردار لبقراتهم ، ثم استراحوا تحت البلاطات العريضة في ساحة الموسيقيين . وكنت اعرف كل اولئك الرجال . فهناك ، على المقعد المغطى . كان بو سعد نمر منهمكاً بصنع سلة من عيدان الزيتون البري ، فجلست إلى جانبه . وكنت اهتم به نفسه ، وأنا أعلم انه يتحمل الأولاد ، ولم يكن وجهه المسود يخيفني ابداً رغم تجعداته وعينيه المتوقدتين . كان حاسر الرأس لشدة الحر . وكانت جمجمته المجدبة تحت شعره المقصوص تذكر بالبطيخة ، وتجويف سترته يظهر صدره المشعر . كان قد وضع في شاشيته علبة دخانه العظيمة . وكانت عيدان الزيتون البري تملأ البلاطة المرمرية الصهباء كلها . كان يحمل هيكل السلة بين ساقية المدبوغتين اللتين يستعملهما كملقط سهل

التكييف . وكان يقطع العيدان ويصغرها في الوقت نفسه .

نظرت إلى عمله بانتباه ، ولكنني كنت قريباً منه جداً . وكانت العيدان تلمس وجهي وهي تلفّ .

– ابتعد يا ابن رمضان فان المقعد واسع !

– كلا ، أريد أن اتعلم .

– اذهب والعب مع من هم في مثل عمرك ؛ فأنت تجتذب كل الذباب الى وجهك وعينك .

– إن لي مكاني في الجمعة كالآخرين .

– حسن ! ولكن حذار ان أمسّك .

ان جميع اولاد القرية يتعلمون منذ حداثة سنهم ان لهم مكاناً في الجمعة ، وان لاصغر مولود ذكر مكاناً كأي شخص آخر . هـذا واننا لانتردد قط بتذكير الكبار بذلك تذكراً فيه من الوقاحة بقدر كانت المناسبة تتطلب ذلك فتحملني بوسعد وسكت ثم تابع عمله .

كانت عيدان الزيتون البري تتصالب بطواعية تقوى وتضعف ، وقد تتكسر أحياناً . فيخرج بوسعد اذ ذاك سكيناً حاد الحافة ويعيد بري الطرف المكسور . ولست أستطيع أن اذكر كيف حدث ذلك . فقد شعرت فجأة بحرارة عذبة في حاجبي ، تبعها فوراً ألم حاد كأنه لسعة زنبور . كان قد أصاب جبيني بحد سكينه . فرفعت يدي الى جبهتي بقوة ، وأعدتها مغمورة بالدم . حينذاك رحت اصرخ ، فنهض جميع

الرجال وجاؤوا اليّ . كنت انتفض كالمسوس بين يدي الشيخ الذي امسك بي وراح يضع على الجرح ماتبقى له من سقوط في قعر علبة الدخان . وكان آخر قد مزق سترته الى قطع وصنع لي عصابة من القماش البالي ، واستمر الدم في السيلان ، واستمررت اصرخ . كان بوسعد شاحب الون ، وسكينه منطرح بين العيدان المبعثرة والسلة التي لم تكتمل . كان مضطرباً وراح يسأل وهو يلهث ، هل كان جرحي خطيراً .

– كدت تقلع له احدى عينيه !

– ألم احذره ؟ كان قريباً مني جداً . هذه ارادة الله . ولست أستطيع أن أفعل شيئاً .

– كان عليك ان تكون حذراً ، فهذا عمل مشؤوم . لقد بقي علينا أن نعرف كيف يتلقى الأهل صغيرهم . امض الى بيتك يامنراد ، امض وقل لامك ان تضع لك رماد قماش محروق .

فاتجهت الى منزلنا دامياً ، وأنا أشعر بأنني نجوت من اغتيال ، مادام الشهود أنفسهم لم يشاؤوا أن يصدقوا بوسعد المسكين الذي كان يقسم بجميع القديسين أنه لم يقصد جرحي وأنه كان يحبني حبه لأحد أولاده . إلا أن هؤلاء الرجال ، هزوا رؤوسهم ، أمام أيمان بوسعد مشفقين على مصيري . ولم يكن لأحد ، حقاً . أن يشك في اخلاصهم ، أو يتهمهم بالسعي اللبق لتعقيد الامور .

وكان اول من التقيت به على عتبة منزلنا شخصاً كان من الأفضل ان تبعده العناية الالهية في تلك اللحظة . كان هذا عمي الذي جذبه صراخي ، وكانت امي في اثره .

فرأيا وجهي الملطخ بالدم وعمرتي القاتمة المبللة .

قال عمي :

— من سبب لك هذا المكروه ؟

وجأرت امي التي لم تتردد في ارسال صرخة تنم عن الضيق :

— لقد قتلوا ابني !

فاجبتها ، قدر طاقتي . كان عمي شرساً :

— قل بسرعة ! من فعل هذا ؟ ولماذا ؟

— انه بوسعد نمر .

— هل فعله متعمداً ؟

— نعم لقد اراد قتلي .

كان هذا كافياً ، فهرع عمي كالاعصار ، وتخيل المشهد لتوه : هجم بوسعد هذا ، وهو ينتمي الى صف الاعداء ، مسلحاً بسكين ، على ابن اخيه الاعزل ، كان يريد ان يقتل الصبي ، ويقضي على آخر ابناء منراد . . . ركض عمي وطار الى الجمعة مسلحاً بهراوة ، وقد تصاعدت من قلبه الى رأسه ثورة من الحق ، فسيثأر لشرفه ، وسيفرض على الناس احترام اسرته .

واسرعت امي خلفه ، تجر بقية الاسرة . كان ذلك عَدْواً مضطرباً . ولم نكد نصل الى الجمعة حتى تناهى الينا الصراخ . فلم اعد افكر بجرحي ، ورحت أرتجف كورقة . كان المكان غاصاً بالناس ، كمدخل بيت للنمال وطئته الأقدام . انني وحيد في ضجيج المشاجرة . اين امي ؟ اين عمي ؟ انني لأميز في احد مخارج الجمعة مجموعة من الرجال تتدافع وارى بوضوح احد ابناء عم بوسعيد يقذف حجرة فتسقط وتثير ضجة صماء . ثم اسمع صرخة كبيرة تسود اللغط . ويهجم احد اقربائنا على المجموعة بمطرقة ويرفع شخصاً من الأرض : انه عمي .

وعلى بعد عشرة امتار ، في شارع صغير مسدود ، تدور معركة بين النساء . اجابات وقحة وصاخبة ، كن يشكلن ،ايضاً مجموعة مضطربة ومختلفة الألوان حيث يسود سواد الشعر واحمرار المآزر .

وراحت الجمعة تمتلىء اكثر فأكثر بالمتفرجين والمتخاصمين . ولم يكن هناك متفرج غير مبال فقد استيقظت العدوات القديمة التي لم تكن تنتظر الاّ ذريعة ، ان تسوّى الآن . ولكن ها هوذا الأمين (١) يصعد فوق بلاطة ، والى جانبه ولي يرفع علماً من الحرير الأصفر . وقال هذا بصوت قوي رزين :

— فلتحل اللعنة على من يضيف كلمة او يقوم بحركة .

فتفرق الرجال ، وتبادلت النساء الضربات الأخيرة خلسة . ووجب

---

(١) رئيس القرية .

قلبي حتى لينقطع . وكان حلقي وشفتاي يابسات ، لم اكن استطيع ان ابكي ولا ان اهرب ، ولمحت امي ، كانت تبحث عن منديلها وقد تبعثر شعرها . فمضيت نحوها . لقد وجدتني فلم تعد تبحث عن أي شيء . وأمسكت يدي الصغيرة بقوة وتركت الساحة . كانت اذن امي ممزقة ، وهزت جدتي قبضة من الشعر في يدها . واخذت بايا مئزر عيني زوجة بوسعد غنيمة . لقد التهبن وكن يردن أن يتابعن العراك أيضاً . كن يذهلنني بسيل الشتائم الذي يمطرن به أخصامهن اللواتي ابتعدن . ولا شك ان الاخصام كن يكلن لهن مثل تلك الشتائم . . .

وما كدنا نبلغ البيت ، حتى رجع رجال الحي يحملون عمي وهو لا يكاد يُعرَف . لقد سقطت فوق رأسه حجرة كبيرة ، وأصيب بطعنة سكين في جنبه ، ولحقت ابن عمنا قاسي أيضاً عدة ضربات عصي. اما صف الاعداء فقد نال ما يستحق تماماً : نقل بوسعد الى بيته وقد ضربه عمي فأفرط في ضربه ، وفقد اخوه نصف اسنانه ، ونال آخرون من الضر ما فيه الكفاية : عيون متورمة ، ووجوه مقلوبة ، وظهور مثخنة بالجراح .

هذه المعلومات بسطها احد افراد اسرتنا بينما كانوا يضجعون عمي على الحصيرة . كانوا يحملون جميعاً آثار المعركة : خدوشاً طويلة تلتمع فيها قطرات الدم وستراً ممزقة وعصائب على الأكتاف .

وقدمت لهم امي وعاء من الفخار مملوءاً بالماء ليغسلوا المجروحين .

فقال احدهم :

– لن نفعل هذا ، يجب ان نتركهم كما هم . ويجب ان يراهم الاروام على هذه الصورة .

زمجر عمي قائلًا :

– ابتعد .

فأضاف قاسي :

– سنحملك على ظهر حمار ونمضي لمقابلة الرئيس حالاً .

وقال آخر :

– نعم ، وسيفعل الآخرون كذلك . فيجب ان نسبقهم .

كان كل منهم يدلي برأيه ، ولكن المقترحات كانت تتسم بالتردد والحيرة . وكانوا جميعاً يخشون النتائج التي قد تنجم عن هذه القصة . ولم يرضهم اي تدبير من هذه التدابير المقترحة . فوعدوا بأن يعود الجميع مساء ليعدوا خطة للدفاع عن بني موسى ضد بني عامر . ثم انسحب الجميع عدا ابن عمنا رباح ، وهو شاب قوي الجسم ، فقد جلس قرب السقيفة ، تلبية لاشارة عمي .

لقد بدا في الاسرة ، انهم نسوا انني السبب الاساسي في هذه المصيبة . وكانت امرأة عمي حليمة وبناتها هناك ليذكرنني بذلك دون شفقة . كانت حليمة تتذمر . لقد كانت أقل الناس اندفاعاً في المعركة . وكانت تدير عينيها بعناد عن زوجها ، لتحدجني بين الفينة والفينة بنظرات ملؤها الغضب ، ومرت ابنة عمي جوهر بالقرب مني

وقرصتني بشراسة .

ـ انظر الى عمك ! انه جميل المنظر ، وانت سبب كل هذا .

لقد آلمتني جداً ولكنني لم اقل شيئاً ، بل خنقت زفرتي في حلقي ، ونظرت الى امي بيأس . كانت قد رأت كل شيء ، فغضت طرفها عاجزة وتخلت عني . وفجأة نهض عمي من جلسته . لقد رأى كل شيء هو الآخر ، فقال للمرأة :

ـ ابتعدي انت وبناتك اللعينات .

وخرجت حليمة وهي تزمجر .

ـ اقترب يا فورولو ، لقد تألمت كثيراً اذن ؟

واخذ يدي وقربني اليه ، لم اعد استطيع ان اقاوم فاغرورقت عيناي بالدموع وارتجف صدري الصغير . فبكيت ، وبكيت بلا توقف .

حملتني امي على ظهرها وخرجت بدورها . فتركناه وحيداً مع جدتي ورباح وبينما كانت جدتي تغمد جراحه بعجين مسود من صنعها ، كان يعطي رباحاً التعليمات السرية : كان والدي غائباً ، فقد ذهب في الصباح الباكر الى (تيسي اوزو) مع حمل من العنب على حماره . ولن يعود إلا بعد ان يعم الظلام . لم ير شيئاً من المعركة وان اسرة بني عامر تعرف ذلك . وقد يكمن له افرادها في الطريق مادمنا قد غلبناهم في الصباح . وان كلاً من افراد صفنا لفخور بنصره . لقد قرر هذا الأمر بالاجماع . وربما لم يكن هناك إلا خصومنا الذين لايرون هذا الرأي ،

ولعلهم بمجموعهم يدعون أنهم الغالبون ، إلا اننا لا نشك في غلبتنا أبداً . ولهذا السبب استبقى عمي رباحاً . وهاهوذا الآن يكلفه بأن يعد الاسلحة ويذهب لملاقاة أبي وينبه بعضاً من أقربائنا لكي يقفوا هم أيضاً خارج القرية ، في المكان المتوقع حيث سيأتي الخصوم فيتركزون فيه .

وحين عاد أبي الى المنزل سليماً معافى ، ادركوا بفرح يخالطه شيء من الموجدة أن هذه الاحتياطات كانت عديمة النفع ، يا لحسن الحظ ! اذ أن اسرة بني عامر التي رأت سذاجة قلبها أنها قهرت اسرة منراد ، ظلت في منازلها حذرة .

واذ رأى أبي العصائب القاتمة والجراح الدامية ، اجتاحه غضب قوي ، فراح يقسم بكل الأيمان التي يمكن ان يقسمها لو كان في « حفلة » الصباح . كان لا يفتأ يهز هراوة وخنجراً ، ومسدساً قديماً . في انحاء الجمعة . كان يريد أن يقذف بنفسه الى الخارج ، ولكن جدتي وحليمة وبناته تعلقن بسترته ، وكتفيه وذراعيه . وكانت امي تمسك بكل طيبة برجليه المضمومتين . وكان عمي ينظر اليه نظرة جامدة . أما انا فقد كان صوته الأجش يبعث في نفسي السرور ، وكنت أشعر بالأمان خلف مثل هذا الغضب . ودخل بيتنا بعض الجيران ونجحوا في تهدئة غضبه . وكان واحد منهم قد جاء خاصة من قبل الأمين الذي طلب الينا ان ننتظره ونستقبله وبرفقته وجهاء من القرية .

وراحت النسوة تحت اشراف جدتي ، يستعددن فوراً لتهيئته وجبة كبرى من الكوسكوس . فأخرجت العجوز بشيء من الفخر ، من الخرج الذي حمل العنب الى المدينة ، جعبة كبيرة من اللحم الذي اشتراه ابي . وقالت تخاطب اعداءنا :

– بودي لو اعرف هل يقدم اولئك الجبناء للجماعة المكومة اللحم الطازج الذي نقدمه نحن .

فقالت امي :

– انهم يقدمون لهم الحمص .

– لاشك اننا فقراء ، ولكن زوجيكما لم يفعلا والحمد لله في حياتي كلها مانخجل امام الضيوف . وبهذا تعرف الاسر الصالحة .

هذا صحيح . ولكن لو اتفق ان ابي ، لم يشتر هذا اللحم فان جدتي لم يكن بوسعها ان تلجأ الى مثل هذه المبررات ، ولم يكن لها ان تخجل من ان تقدم هي الاخرى الحمص او الفول .

وفي موهن من الليل ، فتح ابن عمنا قاسي الباب الكبير بعد ان سعل . لقد جاء قبل الاشراف بعدة دقائق . لم يعد هناك من حاجة إلى مجلس الاسرة الذي اراد ان يجمعه فقد ارتأى تدبيراً آخر . لقد سكن غضبه ، فسيدعو بعض شيوخ الحي فقط ممن عرفوا باللباقة في في الكلام ، ووافق أبي على ذلك . ثم خرج قاسي فمضت امي وخالتي

وبنات عمي لينفردن في الحجرات الصغيرة امـــام البيت الكبير حيث سيجتمع الرجال . وبقيت جدتي وحدها قرب الكانون ، وألمحت إلى انها لا تستطيع ان تمنع نفسها من ان تقول كلمتها .

وسرعان ما وصل الامين يتبعه الوليان وعدد من الوجهاء . فاجتازوا الباحة الصغيرة يتبع بعضهم بعضاً بخطا وئيدة ، ملتفحين ببرانسهم ، وعليهم سيماء الجد والوقار . فرحب بهم ابي وقبل رأس الشيوخ من قبعاتهم المدببة . كان عمي جالساً في احد الاركان . مسنداً ظهره الى الوسائد . ترك الرجال احذيتهم قرب الباب وجلسوا متحلقين على سجادتنا الكبيرة الحمراء ، واستند ابي إلى احد عمد السقيفة وهو يشعر بشيء من الارتباك .

وبعد ان نطق الامين بالديباجة التقليدية التي تسبق كل خطاب شرع يتكلم ، ولكن أبي قاطعه :

— انتم على الرحب والسعة في بيتنا ، إن الليالي لطويلة ، وسنتناول الطعام قبل كل شيء

وابدى الرجال ، شكلياً ، شيئاً من الاحتجاج . فقد كانوا يعلمون انهم يجب أن يأكلوا قبل الاجتماع أو بعده . بل يعلمون أنهم سيأكلون مرتين ، لأنهم سيذهبون لرؤية خصومنا بعد أن يـــتركونا ، ولعلهم فكروا ، على كل حال ، أن رمضان على صواب اذ جعل البداية أكل الكوسكوس . فهذا يتيح لهم ان يهضموا طعامنا قبل أن يتناولوا غيره . وفهم أبي ، من ناحيته ، الوضع : فهو يعلم ان الانسان حين

يأكل طعام أحد وملحه فان من الصعب أنه يخونه . ولكي يستنزل البركة علينا فقد أعطى كلا من الوليين خمسة وعشرين فرنكاً . فاستنفذ بهذا دخل الشهر الناس كله ، ولا ضير في ذلك ، فكل منهم راض . كوسكوس طيب ، ولحم طيب ، والشيوخ استقبلوا بحفاوة ، وقهوة معدة إلى مابعد الاحاديث وهذا كله يحمل الالسن على ان تقول مايراد منها أن تقوله . ان المشكلة ليست معقدة جداً . فمدار القضية ان يعد هؤلاء الرجال بعد إذ شبعوا كل الشبع .

والواقع ان لم يكن هناك من يفكر . لامن أهلي ولا من بني عامر بأن يعقد الامور ، ولكن كل اسرة تريد ، حفاظاً على شرفها ان تحمل الناس على الاعتقاد بأنها منيعة الجانب . وفي هذه الظروف يقف الشيوخ والوجهاء موقفاً جاداً وحذراً . مما يؤثر على من يعنيهم الأمر تأثيراً طيباً .

ـ فكروا اذن ! ان افراد اسرة منراد ليفخرون كثيراً بأنهم حذروا كل هذه الذقون البيض التي جاءت اليهم لتحاول ان تثني العاصفة ، فيجب ان نتمنى لها النجاح . ـ اما في الحقيقة ، فلم يكن هناك انسان يخدع بذلك ـ فالناس وقد اعتادوا على مثل هذه التسويات يعرفون أنها تترجم دائماً بوجبتين سخيتين من الطعام ومكافأة تختلف بحسب اهمية الرؤوساء .

اذن فبعد أن أكلوا وشربوا كما شاء وجدانهم ، قرروا أن يقرؤوا

الفاتحة : واحدة من أجل الاحياء ، واخرى للأموات ، وثالثة للاله ، ورابعة للغلال ، وخامسة لاسم الاسرة ، وهذه الاخيرة قبلتها جدتي برضى كبير وهي تنقنق من النشوة .

ومراعاة للشكليات ، فقد طلب الأمين الى عمي أن يسرد له القصة ، فقال : اليك ما حدث : جاء فورولو الى البيت وهو نصف ميت ، فمضيت الى بوسعد ، اطلب منه تفسيراً لذلك : فأجابني موارباً فتشاجرنا ولما كان حيهم قريباً من الجمعة فقد خرج جميع افراد بني عامر . واصبت بطعنة سكين . وقدمت جماعتنا . وكان الاشتباك . ثم أتيتم كلكم ... ان الأمر لواضح وصريح . بل ان كل انسان على علم بأدق التفاصيل . ولقد أيدنا أول من تكلم ، ظاهرياً ، كما سيؤيد الآخرين بعد قليل . والذين يتكلمون بعدة سيرددون الشيء نفسه تقريباً ، فهم لايأتون بأشياء مختلفة الا فيما يضيفون بين اهلة ، أو في التشابيه التي يستخدمونها ، أو في الموازنة التي يتيحها لهم الوضع . وكانت الكلمة للشيوخ ! فأخرج احدهم كتاباً قديماً مكتوباً باللغة العربية قد سوده الدخان ملفوفاً بمنديل . فقرأ شيئاً غير مفهوم واستدر علينا البركة ، ثم راح فجأة يستمطر غضب السماء ان لم نهديء غضبنا . ومضت جدتي تواً وهي ترتجف لتمس الكتاب المقدس بشفتيها الوجلتين . ووقف عمي ليقسم ويده فوق الكتاب القديم بألا يعمل على اثارة الشجار من جديد . ولسوف يحصلون على القسم نفسه من الجهة الاخرى . فمن

العبث ان يلجؤوا الى العدالة الفرنسية التي ستعقد كل الامور . ولكن لما كان هناك دم قد سكب فان القائد سيرغب في معرفة ماذا حدث، والأمين سيعنى بتهدئته باعطائه مائة فرنك من جيبه ريثما نعيدها له نحن وبني عامر .

لقد شرحوا لنا ذلك كله . ولزم عمي صمتاً كبيراً من التأمل الذاتي واقتنع أبي . أما عن علائقنا المقبلة مع أعداء الصباح ، فلن يهتم بها أحد . لأن اهم شيء الا يختصم الناس بعد هذا .

خرج الوجهاء ليهدئوا غضب بني عامر كما هدؤوا غضبنا . وسنستيقظ في الصباح أعداء من الناحيتين الشكلية . لقد كلفنا ذلك كثيراً جداً .

لن نتبادل الحديث معهم بعد الآن ، ولن نتبادل الخدمات . ولن يجرؤ بوسعد ، قبل مضي فترة طويلة من الزمن أن ينظر إلي . وقد تلقى دروساً مجانية عن صناعة السلال في القبيلة .

- ٦ -

كانت خالتاي تسكنان الحي نفسه الذي سكنه اهلي ، لقد تركهما جدي احمد في منزل صغير لا سقيفة له ولا اصطبل . وفي احد اركان المنزل تجثم خابية مبطان لم تفلح خالتاي في ملئها قط . كان سقف البيت منخفضاً ، وليس للباب إلا مصراع واحد ، وعرض الدار الصغيرة لا يتجاوز قامة رجل ، اما طولها فطول الباحة . وان المرء ليشعر فيها بضيق كأنه عصفور في عشه المستدير المظلم . ولكنه يشعر أيضاً بحرارة عذبة من المودة الصميمية الهادئة . فالجدران تَمُسُّكَ كلما تحركت وتبدو كأنها تتودد اليك ، والأشياء تبسم لك في الظل . كلا . لم يكن في سجن طفولتي العزيز شيء من الكآبة ، وان الفترات التي قضيتها فيه تبدو لي قصيرة جداً .

لم اعرف اسماء خالتيَّ إلا بعد ان عرفت شخصيهما جيداً . لأن الاسم لا يدل على شيء . وكان الامر كذلك بالنسبة لاسماء اهلي . اني لاذكر اني عرفت بدهشة مسلية من فم ابنة عمي الصغيرة ان اباها يدعى لونيس وان ابي يدعى رمضان ، وامي فاطمة وامها حليمة . ومع ذلك فقد ادركت تواً ان الآخرين يدعونهم كذلك ، وان لنا في الاسرة كلمات اعذب تخصنا نحن وحدنا . وبالنسبة اليَّ فقد كانت خالتاي تدعيان خالتي .

كانت (خالتي) البكر . وكانت تبدو لي كبيرة جداً ، اكبر من امي التي كانت تشبهها بعض الشبه . كان لها وجه متطاول ذو عظام ناتئة ووجنتين حمراوين . اما إذا نظرت اليها من جانب فانها تبدو كعنزة جامحة تزينها عينان كبيرتان سوداوان ، وشعر جذاب لا تفلح في ادخاله تحت منديلها ، فيهرب احياناً على شكل ضفائر مبعثرة على كتفيها . وكانت وحشية الهيئة ذات مشية فخورة بقدر ما كانت امي متواضعة ، لينة العريكة .

لقد منحت الاخرى اسم (نانا) العذب . كانت في العشرين حين كنت أنا في السادسة . وكانت هي في عمر ابنة عمي جوهر وفي طولها ايضاً . الا ان اختيها كانتا متفقتين على اعتبارها أجملهن ، ومهما يكن من شيء فقد كانت ألطف منهما ، وكانت كل نسوة الحي يحببنها ويسمينها « يمينتنا » . لقد دللها ابوها ، وقامت اختاها منها مقام الأم . واعتادت ان يخضع الناس لها . وجاء حين اصبحت اختاها فيه لا تقرران شيئاً من دونها . وكانت فاطمة ، ام الاسرة ، تتلقى منها التعليمات . ولم تكن خالتي تناقش اوامرها قط . وحين افكر الآن بذلك ، اعترف بأن امي وخالتي كانتا ذكيتين إذ خضعتا لنانا . لقد غدت امي ، التي لم تنقطع عنها الآلام والهموم منذ موت جدتي ، وجدي من بعدها ، مخلوقة بائسة ورعة مترددة عاجزة عن أن تتخذ موقفاً ما ؟ فهي إما عبرت بخجل عن بعض الاحتجاجات التي يثيرها في نفسها حسها السليم أو تجربتها في الحياة ، فانها تستسلم ولا تعارض من تحب . أما خالتي فلم تكن

تخطيء لفرط حسها السليم ، ولم تكن تقل عن عمي لونيس رغبة في التحريض . الا أن هذا كان عاملاً على الأمل . كانت خالتي تخرج غالباً عن المنطق العام وكانت تعجز عن السيطرة على نفسها . وحين تكون الامور متعلقة بأشخاص مثلها فإن علاقات الجوار تغدو شديدة التبدل . ولقد كادت خالتي تفقد بنات أحمد احترام أبناء عمهن . ولكن دموع امي المرائية ولاصمت ابي القاتم ولا تحيز عمي — الذي كان يدافع عن خالتي دائماً — ليعيد الامور إلى نصابها . ولحسن حظنا أن « يمينتنا » كانت هناك . فكان قاسي ، اكراماً للطفها ، يغفر لخالتي أنها ضربت زوجه . وابن العم (عرب) يغفر لها أنها شتمته . وكانت زوج عمر ، وهو قريب آخر لنا ، يتصامم عن تحديها . لقد كانت نانا أنيسة جداً ! وكان لصوتها موهبة أن يهديء الجيران .

— ايها الاقرباء ! لا تصغوا إلى خالتي ! انها حمقاؤنا ، انها حمقاؤكم ويجب أن نتحملها . آخذوني أنا بما تشاؤون . وآخذوا فاطمة أيضاً . ولكن دعوها تهذر فهي لا تلبث أن تندم بعد ثانية !

وكان هذا صحيحاً . فقد كانت خالتي تأسف دائماً لتسرعها . فتغتم إذاك وتبكي وتحاول أن تصلح ما أفسدت . وكانت توفق دائماً إلى ذلك ، إذ كانت لها أساليب لا تجارى . فكانت تقرض المال وتعترف بأخطائها متألمة ، وتمنح مودتها بيسر كما سبق لها أن حجبتها بالأمس . وهذا ما كان يدهش خصمها الذي يتساءل أليست هذه تصرفات الحمقى .

وعلى العموم فقد كانوا يستسلمون لها ، ويغفرون لها وهم على ثقة بأنهم سيغفرون لها أيضاً في المستقبل . هكذا إذن كانت خالتي تفسد علاقاتها وتصلحها باستمرار . الا أن هذه الطريقة في التصرف سببت لها كثيراً من الخسارة آخر الأمر . ان تعبيراً محبوباً نصف به هذه الفئة من الناس : انهم شيء بين المجنون والساذج ، دون أن يقصد من هذا التعبير الاحتقار . والذين يستحقون هذه التسمية هم اولئك الذين لا يعرفون أن يخفوا شيئاً ، ويكونون على قدر كبير من الحساسية ، قساة على أنفسهم ، يخشون أن يحزنوا الآخرين . وهم ينسون مصلحتهم ، ويسيئون إلى أنفسهم مخافة أن يسيئوا إلى الناس . وعلى العموم فحين يحكم العقلاء على هؤلاء فانهم يقولون عنهم « انهم أولاد » وكانت خالتي ولداً . ووجب أن تظل كذلك حتى موتها . ولهذا فلم يكن أحد ليهتم بما تقول أو بما تنوي أن تفعل . كانت تخضع دائماً لأوامر نانا في شيء من تململ صبي نزق . وكانت تتمتع كالطفل بحدس قوي . فيظن أحياناً أن لها احساساً إضافياً يتيح لها أن تقدّر تقديراً صحيحاً نوايا الآخرين بالنسبة لها ولمن تحب : نظرة أو حركة أو كلمة ، أو تبدل لا يلحظ في الموقف ، كل ذلك يكفي لينبهها . ولكنها لم تكن تفكر في أن تفيد من هذه الميزة أو تستغلها للسيطرة . كلا ، فقد كانت تحتفظ بانطباعاتها لنفسها ، فلم تكن تستطيع أن تشرحها ، وكان من العبث أن تتقاسمها مع الآخرين . وكانت في بعض الأحيان أيضاً تعجز عن إيقاف موجة من المشاعر ، فتترك لفرحها أو لحقدها ومودتها أو لكراهيتها أن تفيض . ثم يعود كل شيء الى نظامه الطبيعي .

كان مزاج خالتي يوافق فورولو الصغير كل الموافقة . فكنا نتفاهم أحسن التفاهم . كنت أحب نانا التي كانت تمنحني محبتهـــا ، فكانت تلاطفني وتقبلني باستمرار وتتخمني بالطعام وتطيعني . أما خالتي فكانت تفهم علاقاتنا على نحو آخر . فكنت بالنسبة اليها شخصاً كالآخرين . وكانت لنا ، إلى حد ما ، علاقة الند بالنـد . كانت تزعم انها تناقشني وتعيدني الى جـادة الصواب ، فتغضب اذا لزم الأمر أو تذعن لرأيي حين تعتقد ان وجهة نظري صحيحة . وهذه الطريقة في التصرف كانت تسرني كثيراً . كنا نتخاصم ونهذر في جد عظيم ، وغدونا رفيقين حقيقيين .

كانت اختي بايا هي التي صحبتني الى بيت خالتيّ ، فكانت تحملني أول الأمر على ظهرها حين كنت في الثانية أو الثالثة من عمري لتلهيني اثناء انشغال امي بامور البيت . وحين استطعت المشي ، كانت أولى خطواتي تقودني بالغريزة إلى بيت خالتي الصغير وكأنه المرفأ الأمين الوحيد بالنسبة إليّ خارج بيتنا . ولقد اعتادت بايا هي الاخرى وفي سن مبكرة أن تعيش مع خالتي . وسرعان ما كوّنا أسرة صغيرة على هامش الأسرة الكبيرة ، حلقة متعاطفة وانانية ، بأسرارنا وأحلامنا الساذجة ، وألعابنا الخطرة ، وخصوماتنا التي تتبدد بسرعة في جو من الحنان .

كان عمل خالتيّ الفخار والصوف . فكانت الباحة مزدحمة دائماً

بالأواني . فهناك في الزاوية قرب الباب الكبير ، كومة كبيرة من الخشب يفاد منها في شيّ الآنية . يُبدأ بصنع الفخار منذ الربيع ، فتمضي خالتي وبايا لجلبه في السلال على بعد عدة كيلومترات من القرية ، فتجفف المدَرَة في الباحة ، ثم تسحق وتحول إلى تراب ، فتصنع خالتاي من هذا التراب المبلل بالماء معجوناً تملآن به الجرار ، ثم تصلب هذه في مدى يومين ، فينبغي آنذاك ان تعجن بقوة وتخلط بفتاتٍ من الطعام اليابس المسحوق . ان حبات التراب التي تطبخ وتضاف على هذا النحو تشكل مع الفخار الطري معجوناً لا يتشقق أبداً ، واذ ذاك يمكن صنع اشكال منه .

تضع خالتي صرة كبيرة من المعجون على لوح وهي رافعة طرف سترتها حتى ركبتيها ، وذراعاها عاريتان ، ومنديلها مرفوع على شكل عصبة . وتكيّف بنشاط قعر الجرة أو القدر أو الصحن . واني أعرف انه لا يجوز لي أن أكلمها ، فليس هذا بالوقت المناسب للكلام . أما نانا المبتسمة المستريحة في جلستها فتتناول الفخار بين يديها الصغيرتين الشاحبتين فتفتته وتختبره وتداعبه ، ومن أصابعها الرشيقة يخرج نوع من القضبان تتطاول وتترجرج وتتلوى كالحية . وحين ترى ان الطول كاف تتوقف وتقطع الحية الى اجزاء وتحيط الكعكعة التي أعدتها خالتي ، بحذر . وعندها تسحب الفخار بواسطة لوح أملس . وترقق القطعة التي تعلو وتشكل آنذاك قعر الجوانب . ثم تنتقل الى القعر الثاني ثم الى قعر آخر ولا تلبث أن تلتقي باختها .

لم تكن خالتاي تهيئان إلا ثلاثة آنية أو أربعة لأن الباحة صغيرة . وإذ يشكل الإناء الأخير تعود نانا الى الأول الذي جف قليلًا — كنا نقول انه شرب — فتأخذ اسطوانة من المعجون الى الإناء المصنوع . ثم تعمل بواسطة محك على تسطيح الفخار وسحبه وتهذيبه وإزالة آثار القالب المرفوع عنه ، وتعلو الجوانب شيئاً فشيئاً ، وترتسم القدر أو الجرة . تمسك اليد اليمنى بالمحك وتعمل في الداخل ، واليد اليسرى تعنى بالخارج ، فما تزال به تعالجه حتى يتخذ شكلًا . إن خالتي لا تصنع قعر الاقدار فقط بل هي تعمل بقدر ما تعمل نانا ، ولكن الجرار التي تخرج من بين يدي نانا ، ذات طابع خاص في رأي جميع الناس . فالنُسَب مراعاة فيها ، وان خطوطها المنسجمة ، واعناقها الممشوقة وخفتها ودقة زينتها لتحمل جميع المتأنقات في القرية على ان يفضلنها ... والحقيقة كل الحقيقة ان ما نصنعه هو دائماً صورة لما نحن عليه .

ان لكل إناء شكله الخاص به ، ويكفي ان تعرض شيئاً ما على اقل النساء اطلاعاً حتى يشرن تواً الى اليدين اللتين خرج منهما . وان لنانا تفوقاً لا شك فيه على منافساتها ، مرده تواضعها ولطفها . ولهذا فان لها سمعة كبيرة وزبائن كثيرين . وخالتي لا تغار منها بل انها أول المعجبات باختها . فهي تترك لها العمل الدقيق لتنصرف هي الى الجرار وصحون الكوسكوس الكبيرة والقدور .

وبعد ذلك بقليل تمتلىء باحة المنزل الصغيرة بالأواني والطناجر التي تجتاح الرفوف وتتسلق الخابية الكبيرة . وفي هذه الفترة ينبغي أن نزن

حركاتنا ونتحرك بحذر . ولكن لم نكن أنا وبابا لنفكر بأن نترك خالتينا . اننا هناك لكي ننظر ، قد يبدو السأم على خالتي في كثير من الأحيان إلا ان نانا لا تتضايق أبداً . ان لكل اناء قصته الصغيرة وطابعه ، فهو يولد وينمو بين احترامنا أو احتقارنا ، وبين ضحكاتنا المستهزئة . قد تسحق خالتي ، المتعجلة المهددة ، في بعض الاحيان ، نموذجاً سمجاً بغضب ، فينبسط هذا على الصفيحة ، على نحو يثير الشفقة ، ويتخذ مظهر كومة مبعثرة ، فنلتجىء ضاحكين خلف إحدى الجرار الكبيرة التي لا تحتاج إلا لمبرر لكي تسقط ، وتهدأ خالتي فوراً .

وحين تنتهي عملية الخلق هذه يتاح لخالتيَّ إذ ذاك أن تتنفسا الصعداء ، فما العمل الذي تبقى إلا تسلية محببة ، فعند ما تجف الآنية ، يجب تزيينها إن لون الفخار الذي استخدم في صنعها احمر أو مائل الى الاصفرار . وان الاباريق والاواني والجرار ، وعلى العموم كل الأدوات التي لا تشوى على النار ، تطلى بطلاء من الطين الابيض يدلك بواسطة حصاة . وليس هذا الصقل بالأمر الصعب ، فتُشاهد بابا وتيتي نفسها تعتمد كل منهما على ابريقها تارة وعلى جرتها الخاصة تارة اخرى . وعلى المرء ان يتعلم الدأب . وكانت خالتاي ترسمان على هذا السطح الأملس الابيض اللامع . وان الاطر العريضة والمعينات والمربعات والدوائر تخطط باللون الاحمر بريشة غليظة من الصوف . أما الخطوط السود المستقيمة الدقيقة فلم يكن هناك من يجيد رسمها كخالتي نانا بسبيبة مشعثة ، ويتطلب مهارة جنية وصبراً استعمال هذه الريشة

الجامحة المصنوعة من بعض شعر البغال ، هذا الشعر اللين الذي يدور ويُجيل في شيء من المصادفة القطرة الصغيرة السوداء فوق صفحة نظيفة. وان نانا لتفلح في صنع الزوايا بدقة كدقة المهندس . وتصنع رقاعاً فاخرة ، وترصع في حاشية سليمة كل الرسوم الكثيرة التي خطتها خالتيّ اثناء الربيع ، أما الصيف فهو أنسب الفترات للطهو ، وليس ثمة من داع لأن ينتظرا فكوم الحطب معدة منذ زمن بعيد . ان يوم الطهو ليوم عظيم . فهو يحدد مسبقاً بحيطة عظيمة ، فلا يمكن ان يكون يوم خميس أو جمعة ، اذ لا يجوز ان يخالف الرسول . ان التقليد يبعد يوم الاثنين لاسباب غامضة . وفي رأي صانعات الخزف ان افضل الطهو يكون يوم الثلاثاء أو الاربعاء بشروط أن تكون الأحوال الجوية ملائمة : كأن تكون السماء صافية والطقس جافاً . وان أقل نسيم يمكن أن يسبب خسارة لأن هذا العمل يتم في الهواء الطلق خارج القرية . ورغم كل هذه الاحتياطات فان صانعات الخزف يعلمن ان هناك مخاطر : من أشياء لا يمكن تفسيرها أو غير متوقعة ، او الحظ أو المصادفة. وحين تشعل النار تنقبض القلوب غماً ، فقد يزفر الحطب احيانا أو تنفجر الأواني كما تفجر الصواريخ ، ويتحول عمل فصل كامل الى حطام تعصف به النار او الى آنية متداعية متصدعة لا تصلح للاستعمال . وآنذاك لا يسع المرء الا ان يبكي .

وحين ينجح الطهو ، فان امي وأبي يشاطران خالتي افراحها ،

ونعرف ان الحب سيرتفع مستواه كثيراً في الخابية الكبيرة . والواقع ان الاشياء الصغيرة قد استبدلت بما يمكن أن تستوعب الشعير ، فتنوزل عن الجرار لقاء نصف مكيال (ديكالتر) كما تنوزل عن الجرار الكبيرة لقاء مكيال كامل . وتجمع خالتاي دفعة واحدة ما تقتاتان به في الشتاء. وان ابي لمطمئن الى حسابها . فهو يتظاهر بأنه لا يلحظ ان ابناءه يستفيدون من ذلك . ولكن طريقته الخفية في مساعدة ابنتي حميه في مشروعهما تدل دلالة واضحة على أيه يهتم بالنجاح . فهو الذي يبحث عن قطع الحطب الكبيرة ويهيئها ، ويلزم امي وبايا بحمل الفخار ويزيح عن كاهل خالتي هموم الاعمال الصغيرة . وفي ليلة الطهو ، يسهر ، دون ان يظهر عليه ذلك ، ليحرس الحطب الموضوع في المكان المختار . وعند الفجر تجده خالتاي في مكانه ، يشاهد عملية اشعال الحطب، وما ان تطهى الأواني حتى يظهر كثير من النساء والبنات اللواتي يرغبن في المساعدة على نقلها ، ولكنهن لا يترددن في سرقتها . وإن خالتيّ لتفقدان صوابهما في هذه الجلبة ، ولكن أبي هناك ، في احدالأطراف، ولا شيء يفلت منه .

ان تغيير الأواني لا يضيع كثيراً من الوقت . ففي مدى عدة أيام يفرغ البيت ، ويغلق على الشعير ونجد انفسنا في بحبوحة في منزل خالتيّ .

الواقع ان صنع الصوف عمل بطيء ولكنه لا يشغل مكاناً وسيعاً .

يعلق النول شاقولياً على عصوين طويلتين ، بالقرب من الحائط ، ويمكن ان يظل هناك بقدر ما نشاء . وتمضي خالتاي اوقات فراغهما عليه . فتجلسان اذ ذاك وظهرهما مستند إلى الحائط ، وتدخلان رؤوس اللحمة بين خيطان السداة وتكومانها بمشط من الحديد . وهذا العمل لا يحول بينهما وبين الثرثرة . اما قبل ان ينصب النول فان خالتي تكونان مشغولتين في ندف الصوف او في غزل السداة بمغزل ومِبرَم .

ان نانا ماهرة جداً ، فخيوطها الصوفية قاسية ورفيعة كالشعر . وهي تستطيع ان ترسم على النسيج كل الخطوط التي ترسمها على الجرار . اما خالتي فهي اكثر عصبية امام الصوف منها امام الفخار . انني ما ازال اسمع ضربات مشطها ذي الضجة الصماء المتعجلة ، مع توقفات مفاجئة ، وعودة غير متوقعة ، وسير مترجج للآلة الحرون . وإذا تتوقف فلأنها قطعت احد خيوط الصوف . فيجب عقد طرفيه . إن نانا ليست فرحة اما اذا اظهرت ذلك كثيراً فان خالتي تنهض وتترك قسمها ، وعند ذاك لا يسمع الا صوت ارتطام مشط نانا المطرب وان المرء ليثق ان العمل يجري على ما يرام . وقد تسهر نانا احياناً لتسرع في العمل . على ضوء شاحب ينبعث من مصباح الغاز المدخن ذي الرائحة الكريهة : كم من مرة نمت بين خالتي وبابا يهدهدني ايقاع المشط المألوف ؟

وحين لا يأتيني النعاس ، فاننا نستمع إلى الحكايات ، بينما تعمل نانا . يجب ان اعترف بان هذه الحكايات كانت تجذبني بقوة إلى منزل

خالتي . فلم يكن ابي وامي ليرويا لنا اية حكاية . ولذا فان السهر معهما لم يكن يسرنا . لم يكن هنـــاك الا الحسابات والمشاريع والمناقشات التي لم اكن افقه شيئاً منها والتي لم تكن تسلي احداً . وكانت فيها ، بعض الأحيان ، مآخذ أو نقد أو اغتيـــاب يجعلني اكره قريباً لنا او احد جيراننا . ولكن الامر كان مختلفاً مع خالتي . فابان سرد القصص كنا نؤلف انا وهي كائنين منفردين . كانت تعرف ان تخلق من كل قطعـــة مكاناً خيالياً تسرده . كنت اغدو حكماً ونصيراً لليتيم الفقير الذي اراد ان يتزوج اميرة ، واحضر باقتدار ، انتصار مكيدش الصغير الذي تغلب على الفولة . كنت القن ردوداً حكيمة لحشيشي الذي كان يحاول أن يتجنب فخاخ السلطان السفّاح . إن حياة اهلي وتناهداتهم لبعيدة عني في ليالي الشتاء الـــتي لا تنتهي . كانت الحكاية تسيل من فم خالتي وكنت أعب منها بنهم . وهكذا تعرفت على الأخلاق وعالم الأحلام . فرأيت الصالح والطالح والضعيف والقوي والحب والمغفل . كانت خالتي تستطيع أن تضحكني وتبكيني . ولا شك في أنني ما كنت لأتأثر من كل قلبي لمصاب حقيقي في أسرتنا ، تأثري بتلك الحكايا . ان مصير ابطالي كان يشغلني اكثر مما تشغلني أمور أهلي . كل ذلك لان خالـتي كانت هي نفسها تستسلم للموضوع . وإذا ما سمعتها تروي حكايتها خيّل إليك أنهـــا تؤمن بما تقول . كانت تضحك أو تبكي كابن اختها تماماً . وحـين تكون نهاية الحكاية محزنة جداً كنا ننام معاً ونحن نشعر بالغم نفسه وكنت ألتف

بها بخوف . كان لها ذهن ملؤه الخرافات . وما أسرع ما علمت بأن لخالتي معلومات عن الأشباح ، وأحـــذية الموتى وجلودهم ، وصراخ المقتولين السنوي ، وطواف الأخيلة التي تنذر بالأوبئة . وعرفت تقمص الحجل والحسون والقرد والبومة . وكانت مخيلتي تقبل كل شيء بسرور . كنت أستطيع ان اسمع كل شيء وأنا ملتحف بالشراشف بـــين بايا وخالتي ، بينما أغلق الباب والبوابة إغلاقاً محكماً منذ أول الليل : ولكن حين يصدف أن أرفع أنفي ، كنت أشعر أن شعري ينتصب ويقفّ جلدي كالدجاجة . فكنت اجري كالمجنون أو أتسمر في مكاني هلعاً . وأجد نفسي تشيعني بعض الأشباح ، ويخيل إليّ أنني اسمع اصواتـــاً ووقع خطوات تلاحقني . آه ! لقد دفعت غالياً ثمن فرحي بالاستماع الى خالتي . اذ انني لم أستطع الى الآن أن أتخلص من بعض المخـاوف . ولطالما ناقشت الامور ولكنني لم أستطع قط أن أتغلب على الاشمـئزاز الذي أشعر به أمام الموتى ، ولم أكن أجتاز قط خلال الليل ، مع كل رباطة جأشي ، مقبرة تيسي الكبيرة . كان صراخ عصافير الليل يبـدو لي دائماً حزيناً ومحملًا بالكآبة ان لم يكن بالتطير السيء .

ومهما يكن من أمر فأنا مدين لخالتي انهـا علمتني في وقت مبكر أن أحلم وأرغب في ان أخلق لنفسي عالماً يلائمني ، موطن خيالات ، لنفسي وحدها الحق في ولوجه .

٧

إني لا أذكر دخولي المدرسة ، كأنما حدث ذلك البارحة . ففي أحد الأصباح جاء ابي من (الجمعة) وعليه سيماء التأثر والغرابة . كنت في باحتنا المطلية بروث البقر ، قرب الكانون ، والى جانبه كان وعاء الحليب . كانت امي قد رجعت الى المنزل ومضت لتأخذ حفنة من الملح وشيئاً من الكوسكوس لكي تهيء لي طعام الفطور . ويجب ان اشير هنا الى ان مثل هذا الفطور لم يكن يقدم لي إلا في الظروف الاستثنائية . وينبغي أن تتضافر لذلك عدة ظروف ، فيجب اولاً ان يكون عندنا كوسكوس ، وحليب ، وبعد ذلك اختيار المناسبة ، وانتظار غياب اختي الصغيرة خاصة ، لأنها قد تطالب بحصتها من النوافل. وقد يدفع هذا امي الى ان تزيد المقادير أو تستثير شهيتنا دون أن تشبعها اشباعاً كاملاً . ففي ذلك الصباح اذن ، كانت كل الظروف متوفرة . فكنتُ اتربع على العرش وحدي امام القدر ، وعيناي ماتزالان ناعستين ، ولكن المعدة مستيقظة كل الاستيقاظ .

واحسرتاه ! لقد كتب علي ، لاشك ، ان اعرف في سن مبكرة ان بعض الأشياء تصدّ القابلية . والواقع ان ابي حين تكلم ، طارت مني شهوة الاكل والنعاس معاً . لم يكن هناك من يشبه ابي في مقدرته على إفزاع الناس . قال لأمي :

– اسرعي ، اسرعي ، واغسلي جسمه كله ، يديه ووجهه ، وعنقه ورجليه . اتظنين ان الشيخ يقبل مثل هذا القرد .

فقالت امي :

– هناك ايضاً سترته المتسخة ، ربما وجب ان ننتظر الى الغد حتى اغسلها هي وبرنسه .

ثقوا انني اهتممت بهذا الاقتراح !

تكون غداً الأماكن كلها قد شغلت . ثم من الافضل الا تبدأ الدراسة بتغيب . يقال إن الاروام[1] قساة ، وليس لنا غيره . يجب الا نكون سبباً في ضربه ، بل لافائدة من الوصول متأخرين اليوم . اسرعي !

غُسلت بسرعة ، وبعد خمس دقائق ، دخلت ، وانا ماأزال مشتت الفكر ، ساحة المدرسة الكبيرة الغاصة بالأولاد ... وقد ابتعدت مسافات عن افطاري . أما اختي الصغيرة تيتي فقد احتفلت وحدها بهذا الحادث وهي تتنعم بقدر الكوسكوس بالحليب . لقد اشارت الى هذا اليوم بحجرة بيضاء . وما اصدق من قال مصائب قوم عند قوم ...

لقد ترك اليوم الأول لذهابي الى المدرسة والاسبوع الأول بل والعام الأول آثاراً ضئيلة جداً في ذاكرتي . ولقد بحثت في ذكرياتي فلم أعثر على شيء واضح . لقد كان لنا معلمان ، وكلاهما من ابناء القبيلة .

---

(١) تطلق كلمة رومي على المعلم (م .)

أحدهما ضخم الجثة قصير القامة ضخم الوجنتين ، له عينان ضاحكتان لا توحيان بالخوف ابداً . أما الآخر فضعيف الجسم شاحب الوجه ، صموت بانفه الطويل وشفتيه الغليظتين ، ولكنه لا يقل عن الأول جاذبية . كان هذا اصغر من الأول وكان يدرس الصف الثاني . وكان كلاهما يرتديان الملابس الفرنسية تحت برنس رفيع ناعم فاقع البياض . ولقد بدا لي هذا المظهر ، لفترة طويلة ، بالغاً ذروة الذوق والأناقة والترف . أما عن المعلمين فانهم ما يزالون الى الآن يشكلون بالنسبة الي ، دون أن أجد الى ابعاد ذلك من سبيل الصورة المزدوجة التي أرى فيها على نحو لا يتغير ، المعلمَ من ابناء البلد والمدير ومعاونه .

سأشعر بكثير من الارتباك لو قلت انني كنت تلميذاً صالحاً أو سيئاً . أو كنت أتعلم كثيراً أو قليلاً . ولكنني ، على أقل تقدير ، لم أكن أشعر بأية كراهية في أن أكون طالباً . كان زميلي (عقلي) الذي ظل حامياً ليَّ ، قد سبقني بعام في هذه الحال الجديدة . لقد كان فخوراً بقدمه . وكان يتيح لأمي ان تستفيد من تجربته . كان يدعوني كل صباح وينتظرني أمام الباب ، ثم نسرع الخطو معاً حتى المدرسة . وكان يعيدني في الساعة الحادية عشرة وهو يشع فخاراً . ولكنه كان فخاراً مشروعاً . انه انعكاس لواجب قد انجز . وكان يشاطرني ، في بعض المرات ، طعامي . وكان يأخذ أحياناً قبضة من التين التي اعتاد ألا يرفضها ، شعوراً منه بأنه كسبها . والواقع انني غدوت بفضله ، حرماً بالنسبة لمعظم الصبيان الذين كانوا في عمرنا ، ممن كانوا يخشونه . أما

الكبار فقد كانوا يدعوننا وشأننا ، لأن لنا بينهم أخاه الذي كان في الصف الأول . فاذا ذكرت انني كنت فزِعاً ولطيفاً بطبيعتي ، لا اسعى إلى إثارة أي شغب ، وان حيّنا يحوي نحواً من خمسة عشر تلميذاً ، كثير منهم قد تجاوز مرحلة الطفولة ، وأن روح الصف كانت قوية جداً في نفوسنا كقوتها في نفوس الكبار ، أدركتم لماذا لم احتج الى من يدافع عني ولماذا لم يتعرض ولد وحيد مثلي ، لكل المنغصات التي تنتظر الأولاد المدللين ، عادة ، في المدرسة .

كنت اذهب الى المدرسة بصورة عفوية . وكان ذلك لأن كل الاولاد يذهبون اليها وحسب . كانت افضل فترات النهار هي الساعة الحادية عشرة من غير نقاش ، حين كنا نصعد مبهوري الانفاس نحو الكوسكوس التي تنتظرنا في منازلنا . لقد كانت هناك أيضاً الالعاب ، لا شك . ولكننا لم نكن بحاجة إلى المدرسة لنلعب . لقد علمت ، فيما بعد ، انه يمكن أن يكون في المدرسة تعليم جذاب . كما يمكن افادة التلاميذ عن طريق تسليتهم . وان هناك طرائق تقلل من جهد التلميذ لتثير انتباهه . قد يحدث هذا . وان الكبار ليقولون كثيراً من هذه الاشياء الجميلة ، أما أنا فأعتقد بصراحة أن طفلاً من ابناء القبيلة في السابعة من عمره لايحتاج إلى كل ذلك . فهو ينتبه خوفاً وكبرياء . اذ عليه ان يتجنب عصي المعلم وسخرية رفيقه الذي يحسن القراءة . وعند ذاك يبدأ يفهم . ويقيناً أن هذا ما حدث معي . فالذين لا يفهمون يعتادون على الضرب ولا يعودون يخشونه . ويضعون كبرياءهم خارج الصف : فهم لاعبون ممتازون

أو « مخاصمون » ممتازون . ولم نكن نفكر حين نخرج من الصف ان نفخر بما حصلنا من العلم . لقد كان رئيسنا في اللعب في الحي صبياً اقرع لم يقبل في المدرسة ، ولم يكن هذا يرى نفسه دوننا مرتبة وكان على صواب . فإن اهلنا ومعلمينا لم يكن يبدو عليهم انهم يعيرون اهمية كبيرة لما نقوم به في المدرسة . ولهذا فقد كان اللعب شغلنا الشاغل . لقد انشأنا حلقة تعود تقريباً كل عام . كان ذلك يبدأ في تشرين الأول بالدحى والصدف والأزرار ، كنا لذلك نجرد كل القمصان القديمة والصداري والسترات — ثم يأتي دور الخذاريف : خذاريف منتفخة ورشيقة قد ابتيعت من المدينة ، وخذاريف طويلة من القبيلة صنعها لنا أهلنا تهتز بنشاط وتصحبها موسيقى حادّة . وفي الربيع كنا نصنع مسدسات من خشب نادر ، كنا نمضي فنبحث عنه في الساقية . وبعد ذلك كنا ننتقل إلى الدوائر والكعاب والمزامير وهذه الالعاب الاخيرة تركت في نفسي ذكرى لاتمحى .

ففي ذات مساء ، بعد الساعة الرابعة ، وكنت قد امضيت ماتبقى من اليوم مع رفقائي خارج القرية عدت إلى المنزل وبين اصابعي مزمار صغير ، وانا احاول باصرار أن استعيد لحناً كنت قد تعلمته . كان ابي جالساً على عتبة الباب وهو يحل سيور حذائه . كان قد عاد من الحقل. وكانت امي قد بحثت عبثاً عني لترسلني في مهمة من اجله ، ولابد ان تكون قد تشكت من غيابي .

قال ابي :

– ها هو ذا ، لا تخافي . وها هو يعود اليك ومعه مزمار ! الحمد لله ، فاذا كان لا يتعلم شيئـــاً في المدرسة فهو لا يضيع وقته مع رفقائه .

وقال لي :

– آه ! لست ادهش إذا كان معلمك يتشكى منك . فأنا ارى جيداً انـــك طائش ، وهو لم يرفعك من صفك لكسلك ، لقد قال لي ذلك .

كانت تلك في الواقع سنتي الثانية في المدرسة ، ولكني كنت ما ازال في الصف نفسه ، وان هـــذا الكشف غير المتوقـع ادهشني كثيراً ويبدو أن المعلم قد حدث ابي عني ، انا الذي كنت اعتقد انني ضائـع بين رفقائي الخمسين ، الذين يشكلون الصف . وها هو ذا المعلم على علـم بعملي ، وها هو ذا يعرفني معرفة خاصة ويعرف أبي ! لقد كان يعرف اذن كل تلاميذه ! لا شك في انه كان يحب الممتازين ويكره السيئين . ومع ذلك فلم تكن هناك اية علامة مرئية تشير الى انه يفرق بيننا . لقد فتشت طويلًا فلم اعثر على علامة ما . اذن يجب ان ارضخ للواقع . لقد قال لابي انني كنت تلميذاً سيئاً ... ولقد خيل لأبي انه آلمني باللهجة القاسية التي تحدث بها . إلا انني كنت في اعماقي مسروراً بعض السرور اذ لاحظت انه يهتم بما افعل ، وانه يتألم لرؤيتي بين المقصرين وانـــه يقاسم المعلم هذا الألم . وجعلني هذا التأنيب الطفيف اسلك سلوك المجدين .

فبالغت في أهميتي ، والحق ان ابي كان متضايقاً من تجولي اكثر من تضايقه من وضعي السيء في المدرسة . انني واثق بأن المعلم حدث ابي عني مصادفة خلال احدى المحادثات العادية ، ونتيجة تداعي افكار ما . ولكن ما اهمية هذا ! لقد حددت هذه الحادثة مستقبلي في الدراسة : فمنذ هذا اليوم ، اصبحت تلميذاً صالحاً من غير جهد تقريباً .

وكان هذا هو الدور الوحيد الذي يلائمني . وكلما تحدث الناس عن التخصص او عن التوجيه المهني في المدرسة لا املك عن الابتسام والتفكير بالطريقة التي تخصصنا بها ، انا ورفقائي . لقد كانت في منتهى اليسر : كان هناك المحاربون ، وكانوا ملوك المدرسة ، وكنا نمنحهم اعجابنا بدون تحفظ . وكان هناك اللاعبون المهوسون باللعب ، ذوو الرؤوس الفارغة ، والارجل القوية والعيون الحادة ، الصاخبون اللامبالون العاميون . والمساكين والجبناء الذين يختلطون مضطرين تبقى مسرات الدراسة الرفيعة والمراتب الفضلى . انها مسرات ارفع في نظرهم ، حتى انهم كانوا وحدهم يستطيعون السعي وراءها . ولما كنت مسالماً بطبيعتي ، لم يكن بوسعي ان ازاحم الزمرة الاولى ولا الزمرة الثانية . فغـــدوت اذن برضى جميع رفقائي تلميذاً صالحاً . كان هناك كثيرون يجهدون اكثر مني لأكون الأول في صفي ذلك بأن نفوذ الفريق كثيراً ما يؤخذ بعين الاعتبار .

وهكذا رحت اعمل منذ المرحلة الابتدائية بجـد دائم ، بدون علم اهلي الذين ظلوا لا يبالون كثيراً بتقدمي .

ولكن هل اتيح لمعلمي الذي لاحظ هذا التقدم ان يحدث اهلي عنه ؟ انني لا ادري شيئاً عن ذلك . هل يستطيع آباء الأسر الذين ينفقون وقتهم سعياً وراء اشباع المعد الصغيرة ان يهتموا كذلك بالأدمغة الصغيرة ؟...

٨

الواقع ان ابي كان شديد الاهتمام بمعيشة اسرته . ولست اعدو الحقيقة في شيء حين أقول إن الفائدة الوحيدة الملموسة من دراستي هي في غيابي الطويل عن المنزل ، هذا الغياب الذي ينقص كمية التين والكوسكوس التي آكلها . واني لاذكر جيداً ، بهذه المناسبة ، شكاوى امي اثناء العطل الكبرى ، واستعجالها حلول نهاية الفرص الطويلة . لقد كان عليها ان تحتال كثيراً على العيش كما كان على والدي أن يعرق كثيراً ليقوم بأود الاسرة .

لم يكن لابني شعبان ارث كبير او رأس مال عظيم وحين كنا نعيش معاً كانا يعملان بصبر منذ بداية السنة حتى منتهاها . وكانا ينجحان في المحافظة على المظاهر وفي حمل الناس على الاعتقاد بأنهما يعيشان في بحبوحـــة . كانت جدتي تدبر المنزل بثقة كبيرة ، وتفرض طاعتها على الجميع .

لقد ماتت فجأة في السنة نفسها التي دخلت فيها المدرسة . وكنت لا أكاد اعرف معنى ان يموت الانسان . لقد بكتها كنتاها بكاء ضعيفاً ، اعتقاداً منهما بأنهما ستكونان اكثر حرية بعدها . ودفنها ولداها كأفضل ما يكون الدفن . فسهر عليها طول الليل حوالي ثلاثين من الشيوخ

الذين راحوا يرتلون حتى الصباح شتى انواع الترانيم الدينية ؛ وذبح خروف وقدم الكوسكوس لجميع فقراء القرية ، وصحبها الى المقبرة اكثر من عشرة من الاولياء . وكان في ذلك كل الفخامة . كان الشيوخ والعجائز في شبه غيرة من هذه الابهة ، وتمنوا على نحو مكشوف ان يشيعهم اولادهم على هذا النحو الى الابدية وهذا ما كان يسر اهلي . وكان آخرون يمتدحون الميتة بأنها كانت عمود المنزل . ولم البث طويلاً كي الاحظ ذلك . ففي عشية الدفن نفسها تخاصمت امي وحليمة حول ثياب جدتي المسكينة ، لقد دهشت من ذلك ولكنني لاحظت ان ابي وعمي قبلا هذه المناقشة واشتركا فيها ، كل يدافع عن زوجه .

وبعد عـــدة ايام ، كان من الواجب ان يعهد بادارة المنزل الى واحدة منهما . كان هناك مرشحتان اثنتان ولعبت الدسائس دورها في ذلك . فكانت الجارات تثير امي او خالتي بالتتالي . واخوات كل منهما يقدمن مساعدتهن ونصائحهن . واخيراً منح ابي ، وهو الاخ اللطيف ، هذه المهمة لخالتي من باب الاحترام لأنه كان أصغر من أخيه . وسُرَّ عمي بهذه البادرة الطيبة ، ولكنها لم تؤثر في زوجه ، ولم تظهر امي بمظهر المغلوبة على امرها . كانت تريد حصتها ، وفيما خلا ذلك لم تكن حليمة ترغب في اي شيء آخر . اواه ! ان ذلك لا يدوم طويلاً . فـــلم تلبث خالتي ان راحت تسرق ، ولم تلبث امي ان لحظت ذلك ، وانبأت ابي به . وهو نفسه لم يلبث ان ضبطها ويدها في الحقيبة . وهذه ، بالمناسبة ، جرة كنا نخبىء فيها لحم العيد المقدد . كانت

حليمة تمسك بيدها قطعة كبيرة منها ، وهذه القطعة كان مقدراً لها ان تمضي الى مكان غير قدر الاسرة . وانفجرت الزوبعة . وثبت ان كل الأفراد يودون في اعماقهم الحصول على حصصهم ، وانهم ملوا من الحياة الجماعية في هذا المنزل الذي خلا من الثقة . لقد كان حقاً اذن ان جدتي كانت عمود المنزل ، لأن الوحدة ذهبت بذهابها تقريباً .

ماذا هناك مما يمكن تقسيمه ؟ لم يكن ثمة اشياء كثيرة . منزل قبل كل شيء . وان عمي الذي ترك له ابي الخيار ، من باب الاحترام دائماً ، استولى على المنزل الكبير بسقيفته التي تحتوي على خوابي ضخمة وعدد كبير من الجرار . فتحت السقيفة يمكن ايواء بقرتين وحمار وخروف . وبكت امي حزناً . واخذنا نحن الحجرتين الصغيرتين المواجهتين للمنزل . ووجب علينا ان نجعل منهما حجرة واحدة بحجم الأولى ، وقسمت الباحة بحبل . وكان في كل جانب منها مدى طويل ولكنه ضيق جداً . وبعد ذلك تقاسما حقل التين ثم حقل الزيتون . قسمة عادلة جهد الامكان ، وهما يرفعان من هنا ، ويضيفان من هناك ، ويمنحان شجرة زيتون كبيرة . موجودة في احدى الحصتين ، وتضاف للحصة الاخرى . ويفرزان الانصاب ، فيضعانها ثم ينزعانها خلال اسبوع . واخيراً تقاسما الادوات والحيوانات والديون .

كانت الزوجتان خلال هذا الاسبوع كله منهمكتين في العمل . وكان الفرح يقرأ على وجهيهما ، كما كانتا تستقبلان الزائرات باستمرار . وتوالى مجيء الجارات اليهما متمنيات لهما مسكناً سعيداً .

كن يقلن لوالدتي :

– الا ابتهجي يافاطمة ، فإن لك منزلاً خاصاً بك ، فتستطيعين ان تتحملي كل المصائب وتأكلي الأرض طعاماً . سيري في طريقك فقد كانت امك امراة صالحة ولم تترك الك اية لعنة .

وكانت امي تجيبهن :

– حفظ الله لكن الغالين ، وليمنحني قريباً ان آتي اليكن لأسر معكن بحادث سعيد .

وكانت المجاملات تترى .

وخلال ذلك ظل الأخوان وحدهما كئيبين . فقد بدءا يشعران منذ ذلك الحين ، على اكتافهن غير المتحدة ، ثقل عبئها في تضاعفه المتزايد . واحسا بأن المستقبل لايدخر لهما شيئاً من الخير وانهما أفقرا انفسهما ، وان كلا منهما قد فقد نصف قواه . وفي الايام الاولى التي تلت التقاسم راحا يتلهيان بالتزاور . وكان عمي يدعوني لكل من وقعاته . وحليمة ذاتها وجدت نفسها تدلل فورولو . والآن وقد اصبح رأب الصدع مستحيلاً نحسب ان الجميع قد أسفوا بعض الأسف . ولكنهم لايأسفون الا لأنه اصبح امراً لايمكن تلافيه . قال جيرونت لسكابان : « انني اغفر لك بشرط ان تموت . » وفترت الدعوات . وعادت الشكاوى القديمة الى الظهور واضيفت اليها شكاوى جديدة مردها الى تجاورنا في الداخل والخارج ، الى جانب الغيرة .

كان ربا الأسرتين يبذلان جهوداً قوية ليقوتا افراد الأسرتين . واذا لم يكن يتمنى احدهما البؤس للآخر ، فلم يكونا قادرين على تبادل العون . اما الوالدتان فقد كان امرهما مختلفاً . فنظراً لان احداهما كانت غريبة عن الاخرى ، فانهما لم تتبادلا الاحترام فقط . ولم تلبثا ان اصبحتا عدوتين . وكانتا تنكبان على العمل بوحشية ، في مساعدة الزوج وتنشئة الأولاد ، وبذل كل المساعي ، وشحذ كل العزائم في سبيل هدف اعلى وهو ان تظهرا للملأ جميعاً ان الاسرتين لم تخسرا شيئاً في هذه القسمة ، وانهما اكثر سعادة وان كلا منهما اسعد من الاخرى .

كان ابي ، وهو الفلاح القاسي ، يزيل الصعوبات ويحمي ارضه باستمرار ويزرعها . وفي مدى بضعة اعوام تغير شكل ارضنا الصغيرة . وبالاضافة إلى هذا فقد حصل على زوج من البقر وحمار وعنزة وخروفين . لم تكن البقرتان لنا ، بل ان احد الأغنياء عهد إلينا بهما في الربيع . فكنا نطعمها ونستطيع ان نستفيد منهما في حراثة ارضنا . وفي شهر تشرين الأول نبيعها ونحصل على ثلث الربح . اما الحمار والخروفان والعنزة فقد كانت ملكاً لنا . وكان الأول منها يؤدي لنا كثيراً من الخدمات ، فهو يحمل على ظهره الحطب وسلة عشب الحقل وينقل الزُّبُل ويحمل الى المدينة احمال العنب والتين ويعود منها بالشعير للاسرة ، او ينقل إلينا في فصول الخضراوات الفليفلة والقرع والبطاطا التي كانت امي تقايض الجيران صحوناً منها بالحبوب .

كان الخروفان قد اشتريا صغيرين فكبرا وسمنا وكنا نبيع واحداً منهما باقتراب العيد ، وان ثمنه يعيد عادة رأس المال الذي دفعناه ثمناً لهما . وكان ابي يفخر ، كل عام ، بأنه ينحر ، دون ان يكون قد انفق شيئاً خروفاً إكراماً للرسول .

وكانت العنزة ، بالإضافة إلى حليبها ، تضع بشكل منتظم ، جدياً او جديين ، يبيعهما والدي بكثير من السرور . وكان يحدث ايضاً ان نأكل واحداً منهما . فكنا نجد مبرراً لذلك بكثير من اليسر : فأمي مصابة بمرضين او ثلاثة ، كانت تتحدث عنهما باستمرار دون ان نراهما . وفجأة ينصحها احد الدراويش ان تذبح جدياً بلون جدينا تماماً . وان لم تكن امي فقد يكون ابي الذي اصيب بضربة شمس . والناس جميعاً يعلمون ان هذا المرض يأتي من الجن الذين لا يفارقون المريض حتى يروا دم جدي يسيل ، جدي بلون جدينا . والشخص العظيم الثالث الذي يستطيع ان يسبب موت الجدي المسكين هو الولد الوحيد . اما الأختان فلم يكن لجنهما من الشجاعة ان يطلبا اكثر من البيض . وكان الإلحاح على ابي يدوم اسبوعاً كاملاً لكي يشتري لنا كل شهرين او ثلاثة اشهر ، لحماً من السوق . ولكنه كان مستعداً في كل آن لينحر احد الجديين .

وهو بذلك يشبه معظم الفلاحين . ان اللحم مأكل نادر جداً في بيوتنا . كلا ! بل الكوسكوس هو طعام الناس الوحيد عندنا . وفي الواقع لا يمكن ان يحسب حساب لمغرفة الحمص أو الفول التي توضع في القدر

مع قليل من الشحم وثلاثة ليترات من الماء ليغلي الطعام ، ولا لمعقة الزيت التي تضاف الى كل وجبة ولا القبضة التين التي تقضم بين حين وآخر . وباستثناء هذا فان لنا القدرة على تخضير اللثات بكل الاعشاب التي نلقاها في الحقول مما يمكن أكله . ولنا الحرية أيضاً في ان نملأ معدنا من كل السواقي الصافية التي تنساب من التلال ، كما نستطيع أن نأكل كل أنواع الخوخ بحجة كونها باكورة الموسم ، والتفاح والآجاص الذي ما يزال اخضر ، والذي تستطيع الاسنان ان تتحمله . اننا جبليون ، جبليون قساة ، هذا ما يقولونه لنا أغلب الأحيان . ربما كان ذلك بعامل الوراثة انها ولا شك قضية اصطفاء ... طبيعي فإذا ولد كائن ضعيف فانه لا يستطيع ان يتحمل المناخ . وسرعان ... ما يهلك وإذا ولد كائن قوي فإنه يعيش ويقاوم . وقد يصبح ضعيفاً فيما بعد ، ولكنه يتلاءم . وهذا هو المهم .

ولكي نعود الى الحديث عن آل منراد ، فإن الأب رمضان نجح ، بعد ان بذل كثيراً من الحيطة في تأمين الكوسكوس اليومي لبيته الصغير . وحين تتوقف اعماله في الحقل ، مؤقتاً ، وذلك في الفترة التي تنصرم بين الحصاد وحصاد الهشيم مثلاً ، او بين الحصاد والدراس . فقد كان يشتغل عاملاً ، ويساعد ، بمياومة ، ببنيان المنازل للأغنياء . وحين شيدوا في القرية أول طاحون للزيت ومكبساً ، وبئراً ذا مضخة فقد عمل ابي فيها اثنين وعشرين يوماً . وهذه الأيام خلفت في نفسي ذكريات عنها .

لقد بدأ العمل في شهر حزيران فيما اظن ، وكنا ما نزال في المدرسة . كانت الورشة في مواجهة مدرستنا تماماً على بعد عدة امتار . وكان هناك في الوقت نفسه مع ابي ، ابن عمنا قاسي – والد سعيد – وعرب – والد عاشور – احد زملائي في المدرسة . ومنذ اليوم الأول اقترح علينا سعيد ان نمضي لنرى آباءنا . فقبلنا انا وعاشور . وفهمنا ، تلميحاً ، ما أراد ان يقول . ألم يكن المعلم يقف العمل في الساعة الحادية عشرة لتناول طعام الغداء ؟ انه رجل مثقف يتباهى بأنه نسخ بعض العادات عن الفرنسيين : فهو يتناول غداءه في ساعة محددة ، وكذلك مستخدموه . لقد وقعنا عليهم ، بدقة تستوجب الثناء نحن والصحون في وقت واحد . فاغتاظ آباؤنا المحترمون بشدة . ولكن المعلم كريم ؛ فأمرنا بالجلوس وأكلنا ورؤوسنا مطاطئة . ومع ذلك كله فقد أكلنا قبل كل شيء حساء طيب مع البطاطا وحصل كل منا على قطعة كبيرة من الكعك الدسم ثم على الكوسكوس الأبيض المصنوع من السميد مع اللحم . وامام هذا الغنى ، تغلب الفرح على الخجل الذي شعرنا به أول الأمر . انه الفرح الحيواني لمعدنا الخاوية . وما ان امتلأت معدنا حتى هربنا وجباهنا تنضح بالعرق ، دون ان نشكر احداً . وحملنا في ايدينا ما تبقى لنا من اللحم والكعك . واستعدنا أنفاسنا بعد مسافة لكي نقدر ونوازن ثرواتنا . وافترقنا بعد ان شكرنا لسعيد فكرته الحسنة . والواقع ان شكرنا كانت تنقصه الحرارة ، وقبله سعيد دون كبير اقتناع . ورأى كل من الشرهين صورة ابيه القاسية والبائسة بعض البؤس تنتصب أمام عينيه . ماذا عسى ان يقول في المساء ؟

لم يكن ابي مسروراً مني كما توقعت . إلا انه لم يلح كثيراً لكي لا يحزنني ووعدني بأن يحمل اليَّ كل مساء اكبر قسم مما يحصل عليه من هذه الأطعمة الفاخرة . وكنت واثقاً من نفسي حين قررت ألا اذهب لرؤيته في الورشة . لقد بر هو بوعده ولكنني لم أكن بوعدي وفياً .

وفي اليوم التالي ، في المدرسة ، لم يشأ احد من المتآمرين الثلاثة ان يشير لما حدث بالأمس . كيف قابل سعيد وعاشور ابويهما ؟ لم اجرؤ على سؤالهما . ومع ذلك فلم يكن من عادتهما ان يُدلّلا ... وفي الساعة الحادية عشرة حاول كل منا ان يتجنب الآخرين . وسارع كل منا الى أكل كوسكوس الشعير . وهذا ما وجب ان نفعله دون شك ، لو لم يكن ذلك الحساء المقدس بالبطاطا . كانت ذكراه لا تني تلاحقنا وكان طعمه في فمنا كل لحظة . أما بقية الطعام فلم تكن تأتي إلا فيما بعد وذلك لكي تمتد أحلامنا .

وبعد يومين وقد عجز سعيد عن تمالك نفسه ، اقترب مني في الفرصة وراح يحدثني من غير مقدمة عن الحساء . كنا على استحسانه متفقين . وكنا نُسيل بحديثنا لعاب مستمعينا . وبما انه أمر مضى فيمكننا ان نتحدث عنه . ولم يكن له ولا لي الشجاعة ، مثلاً ، على وضع خطط المستقبل . فمن منا يخاطر بان يقترح زيارة ثانية للورشة . كنت شرهاً ، ولكنني اعتقد ان سعيداً كان اكثر شراهة مني وقبل ان يراني كان قد ذهب محاولاً عجم عود عاشور . وبدا هذا الاخير قليل الحماسة . ربما كان ذلك بسبب ذكرى قوية جداً عن التأنيب الذي تلا اقتحامنا الأول . ولم يكن بالمستطاع الاعتماد عليه . أما معي فقد كانت كل

الآمال مسموحاً بها . و (طبقني) سعيد طوال الفرصة كلها . وفي الساعة الحادية عشرة زحم مجموعة الأولاد حتى انتهى اليّ ولم يفارقني قيد انملة ،

وصلنا الى مفترق الطرق فتوقفت ، ثم نظرت على نحو غريزي الى جهة المعصرة وكان سعيد قد قام بحركتي نفسها . فأدار رأسه وتلاقت نظراتنا وتفاهمت . فأخذ يدي وجرينا كالمجانين نحو العمال . ولم ننتبه الى نفسنا إلا قبل الورشة بعشرة امتار . وحاولنا ، وقد أخافتنا جرأتنا ، ان نختبىء خلف كومة من القش . كان ذلك متأخراً جداً ! لقد رأونا . فدعانا أبو قاسي بغضب وصرخ فينا طالباً إلينا ان نرجع على أعقابنا . فمضى سعيد كالسهم في اتجاه المنزل . وترك أبي عمله واتجه بهدوء نحوي وطلب اليّ ألا أتحرك . فبقيت مزروعاً هناك خجلاً . فوصل إلي ووضع يده الكبيرة المتسخة بالملاط فوق رأسي وقال لي :

ـ دعه يذهب . اذهب انت الى جانب الأب قاسي ، وكل مكاني ، سأصعد الى المنزل لاستريح قليلاً . فلست أشعر اليوم بالجوع .

كان هذا الطعام ، تحت نظرات الرجال المحتقرة ، عقاباً لي . فكان قاسي وعرب يسخران ممن لا يعرفون أن ينشئوا ابناءهم . وكان التلميح موجهاً اليّ . فأحمر وجهي وشحب لوني . وقلت في نفسي لكي اقلل من أهمية خطأي ، ان والدي لم يكن جائعاً . ولكنني كنت مخطئاً ، فحين عدت إلى المنزل وجدته ، وبين يديه صحني الفخاري الصغير ، المزدان بالمثلثات السود والحمر . كان ينهي تناول طعامي من الكوسكوس الأسود في ذلك اليوم عاد ابي الى العمل ومعدته شبه خاوية ولكنه حفر ، مرة الى الأبد ، في قلب ابنه ، رقته الكبيرة .

٩

لقد ادركت الآن لماذا كانت كل من امي وخالتي حليمة متعجلة في ان تصبح ربة المنزل . اذ لاشيء يفلت من حساباتها .

أما بالنسبة لأمي فالأمر يسير : كان زوجها الأخ الأصغر ، فهو يحصد اذن مساوىء المشاركة . انه اصغر سناً واقوى جسماً ، فهو الذي يعمل . وسيبذل مزيداً من النشاط حين يكون العمل لحسابه الخاص . اما هي فانها تزعم أنها اكثر تحملًا من حليمة . وهناك شيء ثابت وهو أن اولاده وهم اصغر من ابناء عمهم ، لا يأكلون مثلهم . فهناك ربح في الانفصال .

وقدرت حليمة هذه المحاكمة باحتقار . فاذا كان رمضان يشتغل فان للونيس علاقات طيبة ، واصدقاء يستطيعون مساعدته . وليس هناك اجتماع يعقد الا ويحضره لونيس . ان زوجها رجل « عاقل » ثم لاشيء يدل على انه لا يعمل بمهارة كأخيه . وهي تعلم انها تعينه بكل جهدها ، وتستطيع ان تحل محله اذا دعت الحاجة إلى ذلك . وهذا من اجل بناتها لا من اجل اي شخص آخر . بل ان الفتيات أنفسهن اصبحن كبيرات . فاذا تزوجن فان مهرهن لن يأخذه الا لونيس ، واذا بقين فانهن لن يتعطلن عن العمل أبداً .

كانت جوهر البكر في العشرين من عمرها حين تم التقاسم بين الأخوين .

انها فتاة هيفاء عصبية ، ذات عينين يشعان خبثاً ، هرة تنشب أظفارها وتعض ، وتستطيع أن تقوم وحدها بادارة المنزل كله . انها عدوة امي اللدود فهي تتجسس وتفتري عليها .

وملكير الأصغر سناً كبيرة الجسم وعنيدة ، لها شيء من تقاطيع ابي وكثير من اخلاق امها . وكان لونيس على ثقة من انها لن تتزوج ابداً . وكانت تحمل الى الاسرة كل انواع المزاح والمشاحنات اليومية . لقد صممت حليمة ان تعلمها صناعة الخزف والصوف . وستنجح ملكير في ذلك ذات يوم رغم سخريات ابيها وحسد امي .

ان سمينا في عمر اختي البكر بايا ولهذا فقد كان بينهما تزاحم دائم ، فكانتا تعيدان بتواقت تام خصومات امها ، فهما مقياسان لا يخطئان . وكنت اتهم اختي بايا بأنها تثأر لجبن امي من جبن سمينا ، وكانت سمينا تنتمي الى تلك الفئة من الناس التي ليس لها الا لسانها تثبت به شجاعتها . ان لها عينين واسعتين وفماً واسعاً جداً كأنما خلق ليتكلم كثيراً ، وكانت تخن قليلًا بصوت أجش كصوت الصبيان . أما بايا التي كانت صموتاً ومنعزلة فقد كانت تدعها تشتمها إلى وقت تمسك بها بعناد ، كانت تصحح لها موقفها بالتعاظم عليها ، وكانت سمينا تنهي تهديداتها بين الدموع والمخاط ، وقد اصبحت ربطة عنقها في الأرض وشعرها على وجهها .

ان شهبا ، أصغر بنات عمي ، كانت اكبر من اختي تيثي مع ذلك . كان لهذه الصغيرة المسكينة وجه شاحب . انني لا افتأ أرى

شفتيها المتغضنتين ، الباهتتين ، وعينيها الصفراوين وخديها المتهدلين . كان الجميع يهملونها ويحقدون عليها . انها ولدت وهي تتمسك بالحياة . ومع ذلك فهي ذكية ، فقد تعلمت ، من غير مساعدة احد ، ان تصنع الفخار أفضل مما تصنعه ملكير الكبيرة . وهي وحدها التي لم تكن امي تكرهها لأن شهبا كانت متعلقة بي . ان قلبها الصغير العذب المستسلم لم يفهم ولم يصغ قط إلى الكراهية التي تشعر بها امها نحو الصغير فورولو . لقد ماتت عزيزتي شهبا منذ زمن بعيد ولكن ذكراها ظلت حية في نفسي . لقد كانت صديقتي الاولى .

اصبحت حليمة ، حين تم التقاسم ، شرسة فيما يتعلق بها وببناتها كانت تريد الغنى وتثور على بؤسها . لقد كانت امرأة اعمال . ولم تكن الوساوس لتوقفها قط .

كانت نقطة الانطلاق واحدة بالنسبة للأخوين : في الناحية الايجابية حقل تين وحقل زيتون . وفي الناحية السلبية . بعض الديون الصغيرة وابناء يحتاجون الى تنشئة .

ولكي تظهر حليمة تفوقها منذ الشتاء الأول فقد ألزمت لونيس (بتعهد) زيتونتين لأحد الاقارب الاغنياء . ومثل هذا يحدث عندنا دائماً : يعهد اليك المالك بأرض مع أشجار ، فتسهر عليها وتجمع الزيتون وتدقه ، ويحصل المالك على الزيت . ان مقدار محصول المكان معروف بكثير من الدقة ، وكذلك محصول الزيتون ونوعية الزيت ، فليس مجال للخداع ، ويبرم التعهد وفق طريقتين : فاما ان

يلتزم باعطاء مقدار من الزيت محدودة سلفاً . وفي هذه الحال يستطيع الفلاح غير المستقيم أن يهدم مستخدمه . ويحدث غالباً ان يرى البائس نفسه هو واولاده بعد عنائهم قد كسبوا ديناً هو ثمن ضعف عدد الدكاليترات التي لم يستطيعوا تسلمها . وفي الطريقة الثانية يخص المالك نفسه بقسم من الغلة : هو ثلثا المحصول في أغلب الأحيان . والمستخدم في هذه الحال هو الذي يستطيع ان ينهب المالك . وهو لايتأخر عن السرقة . إلا أن المالك يحتاط لنفسه فلا يعهد اليه إلا باشجار الزيتون البعيدة أو قليلة الأهمية . ثم ان الناس لاتختار الا الاقرباء الذين يجب أن يستفيدوا ، مهما كلف الأمر ، من المحصول قليلًا كان ام كثيراً. ويمكن المالك أيضاً ان يتخلى عن اشجار الزيتون بالاتفاق ولكن لفترة محدودة : وهي الفترة التي تسبق خبط الاشجار . واما نضج الزيتون فان جمعه يصبح سهلًا ومن الحمق ان يشرك المرء أحداً في اقتسام المحصول .

من البديهي أن العمال يميلون إلى الذين لا يترددون في ارسال نسائهم وبناتهم لجمع الزيتون خارج حقولهم . ولم تكن حكيمة تجرؤ أن تتصرف على هذا النحو يوم كانت جدتي على قيد الحياة . لقد كان لجدتي قدر من الكرامة !

إن التردد الذي قد يشعر به لونيس يختفي امام الكسب المضمون . لقد « ضمن » شجرتي الزيتون بشرط ان يعطى ثلثي الزيت . وكان هذا العمل لأحد الأقرباء . كان كل ابناء اعمامنا لا يولون ابي عنايتهم

وكأنهم يريدون مساعدة عمي وحده . راحت امي تجتر غيرتها ، وجهد ابي في ان يحيي الأرض البوار . وبينما كانت فاطمة وبابا تترصدان – إن صح التعبير – بضع شجرات زيتون وتخطفان بسرعة اصغر زيتونة تسقط منها ، وتجلبان بشق النفس سلة من الزيتون تارة ونصف سلة تارة اخرى ، فإن حليمة وبناتها كن منهمكات بالعمل . فمنذ الفجر كنا نسمع حركتهن ، ولا سيما ايام الريح . فكانت الأم ، وكأنها قائد في ساحة الحرب ، توزع المهام بلا تردد : ستذهب جوهر معها ، وينبغي ان يمرا في كل مكان ، ويبحثا في أطراف الحقل . ففي الزيتون الذي يضيع تكمن فائدة العمال ، اذ ليس للغني من الوقت ما يجعله يهتم بها ولا يستطيع تقدير قيمتها .

– افتحي عينيك يا ابنتي ، فان كل هذا كسب لنا .

ولم تكن جوهر تحوجها لأن تقول هذا مرتين . إن الشعاب هي التي تؤلف الحدود عادة . كيف يميز المرء بين زيتونه وزيتون الآخرين ؟ انه قانون الذي يسبق غيره للاحتلال . ان جوهر وحليمة هما اسبق الناس دائماً الى المناطق الهامة ؛ فهما تنظفان كل الأعشاب وكل المجاري . وقد تتعلق أيديها بالعوسج ، ولكن قلبيهما عامران بالفرح . ويمكن أن تسرقا الجيران مطمئنتي الضمير .

تعمل ملكير وسمينا معاً . فتذهبان الى الزيتونة الاخرى مع الأوامر نفسها . وبما أن حليمة ليست شديدة الوثوق بهما ، فانها ترسلهما الى المكان الذي نظف بعناية بالأمس . وتحمل الأربع الحطب اليابس

مع الزيتون . وستحصل حليمة ، عما قريب ، على اهم كومة من الحطب هامة في الحي . وأنّا جميعاً لننظر اليها بحسد .

يسخن طعام النهار ، المؤلف نصفه من الكوسكوس ونصفه من البلبول في إناء كبير من الفخار ، صباح كل يوم قبل الذهاب ، ويسكب وهو يزفر ويدخن في صحن واحد فيتحلقون حوله ليلتهموه مع حرارة الجوع واسراع من يستعجله الوقت . ومن ثم يأتي توزيع التين الذي يتم بسرعة أيضاً ، ويضرب المساء موعداً للالتقاء ويغلق الكوخ .

تنهض ابنة عمي شهبا صباح كل يوم مع الآخرين ، فعليها مهمة يجب أن تؤديها . هناك زيتونتان قرب القرية على حافة الطريق المسلوك كثيراً ، وعليها ان تسبق المارة ، وفي المساء حينما نجد حليمة ، في عودتها من الحقول ، بعض اللباب المسحوقة تشكل ما يشبه بقع الحبر على الحصى ، فإن شهبا تعلم علم اليقين ان لها عقاباً على ذلك .

انني ما أزال أرى شهبا المسكينة ، ورأسها ملفح بمنديل متدرن ، وخصل من الشعر الشاحب تشوش عليها الرؤية ؛ تنفخ باستمرار على أصابعها الصغيرة المتجمدة ، والمحمرة بعض الشيء . لقد جهدت ان تمسح عينيها وتنشق انفها الذي يسيل . انها لترتجف من البرد وهي ترتدي سترتها الوحيدة ذات الكمين القصيرين ، ولكنها تغني وهي تجمع الزيتون ، وتشعر بالسعادة حينما تملأ سلتها . وإما انتهت مهمتها فان عليها ان تحرس البيت . ان البيت مغلق ولكن هناك الباحة بما فيها من كوم الحطب

الكبيرة . وتمضي شهبا بقية يومها في الشارع تبحث في منازل الجيران ، وتلعب مع التلاميذ أو الفتيات الأخر ؛ تلتقط من هنا ومن هناك قطعة من الكعك أو ملعقة من الكوسكوس أو قبضة من التين . وحين يعود المتجولون من نزهتهم تحرص على ألا يتكئوا على الزيتونتين ، فتسرع لتخيفهم بصوتها النحيف وتقرقع بسطل صغير لا يفارقها أبداً . انها تحرس في الداخل وفي الخارج باذلة كل جهدها ، ثم هي تجد لنفسها وقتاً تلعب خلاله .

نجحت حليمة ، من جهتها ، في اشراك لونيس في نشاطها . فهو يريد أيضاً ان يظهر بمظهر المتفوق . كان الناس في تيزي يرون الأخوين ، في أغلب الأحيان ، منهمكين في مهمة واحدة كما كان شأنهما إبان شبابهما . كان هذا المشهد مشهدا جميلاً للتفاهم الاخوي . إن القلوب لم تعد تخفق للاتحاد . أما الآن فليس هذا المشهد إلا مشهداً يستدر الشفقة على أبوين يعرقان في أراضيهما الهزيلة ، كل من جانب ، وكل لحسابه الخاص وهما على استعداد لأن يقف أحدهما في وجه الآخر ؛ ذلك بأن الحياة تسخر من العواطف .

شعر رمضان في كثير من المرات ، ولقد عرفت ذلك فيما بعد ، بانقباض في حلقه وهو يرى أخاه البكر لونيس يعمل . لونيس ذا اليدين الناعمتين ، والسترة البيضاء ، لونيس الذي كان يتحدث في الجمعة فيحسن الحديث . كان يود لو ينتزع الآلة من يده ، ويرسله الى اجتماعاته . نعم ، لقد أكد لي والدي انه شذب اشجار عمي خفية وأنه حفر هذه

القطعة أو تلك ، ولكن لم يكن في استطاعته أن يحل محله تماماً ، وان يقوم بعمله كما كان يفعل ذلك فيما مضى . إن الانفصال كان له هذا الواقع إذ يجب على المرء أن يفكر باطعام أبنائه . ولم يكن ذاك أمراً يسيراً . ولم يكن المرء يستطيع ان يسمح لنفسه بأن يتنحى عن مسئولياته . وانتهى بها الأمر الى ان يقولا « كل امرىء وشأنه » . وحين عجز رمضان عن ان يتحمل رؤية اخيه يلعب بالقرب منه غيَّر مكانه وعمله .

ولم يلبث عمي ، بفضل زوجه وبناته ، ان بدا أقل ارتباكا من أبي . وسرعان ما استطاع ان يواظب على الظهور في الجمعة اكثر من ذي قبل ، وان يستعيد شيئاً فشيئاً عاداته كوجيه في القرية . كانت حليمة تهتم بكل شيء . وكان احد الاقرباء أو الاصدقاء يعطيهم ، بين الحين والآخر ، يوماً من خبط الاشجار او الفلاحة . أما الحيوانات ، فلم يكن عندهم إلا العنزة وخروف العيد . كانت الفتيات تقوم بصنع الأواني وتقايضها بالشعير . وكن ينسجن الصوف فيبيع عمي ما كنَّ يصنعنه .

أما عن الطعام ، فباستثناء عمي نفسه ، لم تكن متطلبات حليمة او بناتها كثيرة . والواقع ان خالتي لم تخطىء في حسابها . كان في استطاعتها ان تكون اسعد من امي دون ان تلتجيء الى عدم الاستقامة . كان لونيس الذي يعرفها ، يتحملها باستسلام كما يتحمل المرء مرضاً لا برء منه . كانت حليمة ترغب في اشراكها في المصالح فأذعن لها .

فراحت تسرق زوجهـــا . كانت ترفع على نحو منتظم جزءاً من كل الدخل ــ الحبوب والزيت والتين والصوف ــ وتبيعها بسعو منخفض . وكانت تأخذ ، كلما سنحت لها الفرصة ، قطعة من النقود أو ورقة من مال لونيس فتجمع مبلغاً صغيراً وتشتري به قرطاً أو ربطـــة لجوهر وفوطة لملكير ، وتترك البائع يسرقها وهو ضامن كتمانها . أي شيء لم تعطه لجميع خاطبات الازواج المسنات ؟ وماذا هل تستطيع امهات شباب الحي ان يذكرن كل ما قبلنه منها دون ان يزوجن بناتها من أولادهن ؟ وماذا عن الشيوخ بتمائمهم السحرية التي يجب ان تخاط في زاوية من القميص تحت الابطين أو تعلق على قصبة أمام المنزل المرغوب فيه ، كم قبض هؤلاء الشيوخ ثمناً لكتاباتهم السحرية ؟ في هذا كانت تنفق المال القليل الذي اقتصده عمي . ومع هذا يُجدِ ذلك نفعاً . فكبرت بنات عمي وقبحن ولم يتزوجن .

كان عمي يدرك كل تلاعب حليمة ، لأننا اعتدنا في القرية مثل هذا التلاعب . ولما كان صريحاً وعنيفاً فقد كان يتمنى لو يضبط زوجه في موقف راهن ويخنقها غضباً . ولكن الذبابة المحتالة ضاعفت جهدها ، وشجعته على الكسل وأشبعت شرهه فانتهى به الأمر الى ان يترك لها حبلها على الغارب ، وراح اهتمامه بها وببناتها يقل شيئاً فشيئاً . لقد كان عمي طاعناً في السن ، وكان يعرف منذ ولادته أنه لن يكون غنياً . أكان الغنى ضرورياً كي يعيش الانسان ويموت ؟

١٠

ليس هناك من اشياء هامة اضيفها عن عمي لونيس وحليمة وبنات عمي . كنا نعيش جنباً الى جنب كأننا جيران عاديون . وأنمى كر الزمان شيئاً بعد شيء عدم مبالاة بعضنا ببعض . اننا نعرف ان همومنا من طينة واحدة ومشاغلنا واحدة ومواردنا متساوية . لم يكن هناك ما نتحاسد عليه ولا ما يخفيه بعضنا عن بعض . ان النشاط الماضي لم يعد يحرك حليمة أو امي . ولم يبق ثمة إلا نوع من الغيرة العاجزة ولكنّ هذه الغيرة تشبع نهمها في تشابه وجودنا البائس .

لقد خفت تنافس ربا الأسرة أمام الصعوبات التي كان عليهما ان يتغلبا عليها لاطعام اولادهما . ويمكن أن نمثل الأخوين تمثيلاً صحيحاً ببغلين قد حملا احمالاً ثقيلة ، يعرقان على دروب بلد القبيلة . فليُحاول أحد أن يحملهما قليلاً على الركض كي يبرزا ! إن البغلين ليهيجان بسرعة ويفهمان ما يُراد منهما . وعلى العموم فليس هناك مثل البغل ما يحمل غيره على الركض . اما اذا كانا مسنين ومحملين وكانت الطريق وعرة فلا أمل فيهما . ان الشيء الأساسي هو ان يمشيا . وكان هذا وضع رمضان ولونيس .

ربما تزوجت بنات عمي ، فيما بعد ، كما هي الحال بالنسبة لأخواتي

ويبدو هذا أمراً طبيعياً جداً . إذ يولد الناس ويتزوجون ويموتون على نحو متشابه . وحينما يفكر المرء بذلك ، احياناً ، يطرح على نفسه اسئلة محرجة . ولكن الانسان في معظم الاحيان يترك الامور تجري في أعنتها وذاك افضل .

وعلى الاجمال فان طفولـــتي انا الذي انتمي الى اسرة منراد ، ابن رمضان وابن اخ لونيس ، سارت سيراً عادياً وفارغاً كطفولة عدد كبير من أبناء القبيلة . وان كل ما احتفظ به من ذكرى عن هذه السن لوحة تبدو لي قاتمة غير منسجمة ، لا افتـــأ اتذكرها دون ان اشعر بسرور او بانفعال شديد . انني لأستعيد صورتي وانا مرتد سترة قد بدد ألوانها سوء الغسل ، ومعتمر شاشية ذات اطراف منسولة متدرنـــة ، حافي القدمين ، من غير بنطال . لأن الزمن كما حفظته ذاكرتي هو الصيف دائماً . قدماي مسودتان من التراب ، واظافري متسخة ، وعلى يدي بقع من الثمار ، وعلى وجهي خطوط من العرق الجاف ، وعيناي حمراوان وجفوني متورمة . اما اذا كان يوم الاستحمام فهذا فورولو الذي تعهدونه ما عدا اللحية طبعاً . هذه جبهة محدبة وحواجبه كثة ولكنها قصيرة بعض الشيء ، وعيناه كستنائيتان ، آمنتان بنظرتهما الملاطفة والمرائية قليلاً . وتانك أيضاً وجنتاه البارزتان ، وانفه الدقيق كأنف امه ، ثم شفتاه الرقيقتان كشفتي ابيه ، تعلوان ذقناً مثلثة الشكل . اما الآن ، فحينما احاول ان اجد صورتي بين تلاميذي ، فانني اجد نفسي دائماً بين ضعيفي البنية منهم ، واقلهم طيشاً ، اولئك الذين يخشون ان يبذلوا الجهود ، ويحتقرون اللعب ،

ويشعرون بلذة خبيثة في ان يتعلموا دائماً شيئاً ما .

لا ينبغي لي ان اتحدث عن افضل ذكريات طفولتي في اسرة منراد . ان ذكرياتي لتتراكم رماداً في عش خالتي الصغير . أهي افضل ذكرياتي ؟ واحسرتاه ! انها لأكثرها كآبة وتأثيراً ايضاً .

انني اعتبره حظاً فريداً بالنسبة الى ان يكون لي خالتان كخالتي نانا .

ان الطفل قلما يبالي بجنان اهله ، فذاك بالنسبة اليه امر مفروغ منه ، حتى انه لا يفكر في هذا الجنان اصلًا ، فهو يضجر إما دللوه ويطمح الى مودات اضافية : انه يتقدم ويبحث عن اصدقاء . ان ناكر الجميل يريد ان يمنح قلبه الصغير ، وهو على استعداد لأن يخون امه ، ويفضل شخصاً آخر على ابيه بشرط ان يجد شخصاً موثوقاً . ان اندفاعاته الساذجة تتوجه ضد الكبار في لامبالاتهم به . إلا انه لا يلقى الا الخيبة ، ينبوع المرارة الاولى . كما ان هناك تنافساً بين الاخوة كلهم في الاسر الكبيرة . أما الأهل فان شاغلهم الدائم هو الكفاح لتأمين الكوسكوس اليومي أو السترة السنوية . ما اكثر قلوب الاطفال التي لا تعرف التفتح ، والتي تظل كبيرة بجنانها المغلق على ذاته .

كان لي هذه الخطوة الخاصة في ان اكون موضع دلال اهلي ، وان اجد غيرهم ممن يتاح لي ان امنحهم مودتي من غير حذر . ويكفيني ان اتذكر طفولتي الاولى لكي اشعر ، حتى في هذه الساعة أيضاً ، بالجو العذب الذي عشت فيه عند خالتي . وان قلبي ليشعر آنذاك بحسرة غامضة وكئيبة .

كانت نانا متزوجة ، ولقد عرفت ذلك منذ اصبحت قادراً على الفهم. كان زوجها في فرنسا ، وهو يدعى عمر ، وكانت خالتاي تتحدثان عنه احياناً بلهجة سيئة دوماً . لم تكن خالتي تحبه كثيراً ولم تكن نانا لتستطيع الدفاع عنه . ويرتبط وجه عمر ، في ذاكرتي دائماً ، بوجه امه. وأنا لم اكن اعرفه حين استأنفت العجوز علاقاتها مع بنتي احمد . كانت الآنية الخزفية تباع ، فيما يرى الناس ، بيعاً حسناً ، وكانت العجوز ذكية : فقد ترك عمر نانا بعد زواجه بعدة شهور ، وذهب الى فرنسا ، وهو ما يزال هناك . كان في عمله هذا مخطئاً كل الخطأ ، ولكن امه زعمت بأنها تتعهد باعادته من باريس . ان المرء لا يرفض رؤية زوجه قبل ان يفكر في ذلك طويلًا ، لا سيما اذا لم يكن راغباً في الطلاق . انني على ثقة ان خالتي اساءت استقبال الحماة . ولكن ماذا تستطيع ان تفعل بمينة الرقيقة ؟ كانت تصغي الى العجوز ، وكان قلبها لا شك ، يصغي بعض الإصغاء . كانت شابة جميلة محبة ؛ لقد عرفت زوجها ولم تجد الى نسيانه من سبيل !

وهكذا رحت اصادف — من غير ان اعرف معرفة عميقة كيف تم ذلك — عجوزاً مجهولة في بيت خالتي ، كانت ملؤها الابتسامات كما كان يجب ان نتحدث اليها باشارات الاحترام . انني ما ازال ارى عيني هذه المرأة . كانتا تزعجانني كثيراً حين تحدقان فيّ . كانت العجوز تعريني بنظرتها ، فرحت أخشاها وابغضها . كان لها وجه مشمعي ذو خطوط مستقيمة وانف مستقيم ، وتجعدات عمودية وفم واسع

جدا ذو شفتين رقيقتين ، كانت توسعه احياناً بابتسامات تبدو لي رهيبة .

وكانت خالتي أو نانا تعطيها ، إما ذهبت ، صرة كانت تخفيها وهي تبتسم ، في سترتها فوق صدرها . وكانت الصرة تحتوي على التين مرة وعلى الطحين او الشعير مرة اخرى .

رجع عمر فعلًا ذات يوم واستعاد نانا اللطيفة . وكان عليه ان يعود الى بيت ابويه العجوزين فارغ اليدين ، إذ انه قبل ان ينزل في كنفهما دون أن يقطب جبينه كان له اخوة واخوات ، ولم يكن احد يشعر نحوه إلا بالازدراء واللامبالاة . وسرعان ما تحملت نانا هذا الازدراء لأن خالتي لم يعد عندها ما تعطيه العجوز بعد أن ظلت وحدها في المنزل . كان اخوة عمر يحملونه كل الأعباء الثقيلة . يا للشيطان ! لقد اشتغلوا ما فيه الكفاية خلال تغيبه غير المفيد . كان هنالك ، لا شك مآخذ كثيرة على الطريقة التي عاش فيها عمر في باريس . فقبل ان يقوم بدور الخادم بصبر ، وهو يفكر بمشروع للهرب النهائي ، وحمل خالتي على ان تقدر ذلك ، هي التي كان لها نصيبها الوافر من الآلام والمذلة .

لست أستطيع أن احدد كم دام كل ذلك . ولكنني اذكر جيداً ليلة من ليالي الربيع أو الصيف . كان القمر مضيئاً ، وكنا ، أنا وخالتي وبابا ، في الباحة الصغيرة . وكانت خالتي تروي لي للمرة العشرين قصة سارق التبن الذي اراد الله ان يخجله فرسم على صفحة السماء مشيته الليلية على الارض بسحابة حليبية اللون . كان لهذه القصة روايات

مختلفة . فقد يكون الرجل سارق بقرات حلوب او طحاناً مخادعاً . ولكن الفكرة كانت نفسها . فنهر المجرة هو دائماً بالنسبة لخالتي ، مأخذ ثابت على أعمال الليل المريبة .

قُرع الباب بعنف ، فسارعت بابا الى فتحه . دخل عمر ونانا وهما يلهثان . كان على ظهر نانا حزمة كبيرة من المتاع ، فيها كل ثيابها وكان عمر متلفعاً بالسجادة الكبيرة الملونة ، يضم وسادة الى صدره باحدى يديه ويمسك بالاخرى على كتفه تحت السجادة ، الصندوق الصغير ذا الألوان الحادة التي وضعت فيه خالتي تحفها وصابونتها والعقود والاقراط بعناية . انني اعرف هذا الصندوق جيداً ؛ فقد كان الشيء الوحيد الذي لا تسمح لي خالتي بأن اعالجه على هواي . كانت قد اخذته حين عادت الى زوجها . ماذا تعني هذه النقلة ؟ رأيت في ضوء القمر الشاحب عيني خالتي تلمعان فرحاً ، وخديها يزدادان احمراراً . وفهمت ان في الأمر سراً . دخلنا نحن الخمسة الى الداخل ، وجلسنا في صف بين الأمتعة المبعثرة ، واستحلت انا الى أذن صاغية . ولمرة واحدة بدا لي عمر شخصاً هاماً . كان وجهه صغيراً اسمر اللون ، هندسي الشكل ، يذكر بعض الشيء بوجه امه ، وعيناه سوداوين حادتين جداً ، وفمه أدرد . كان يتكلم بسرعة ، وكانت له طريقة خاصة في لفظ بعض الحروف بحيث يضطر المرء الى ان يفهم الكلمات من معنى الجمل . كان ربعة ، ضعيف الجسم لا يكاد يكبر نانا إلا قليلاً ، وإذا كنت لا أخشاه فانني كنت أحتقره احتقاري لأمه . ومع ذلك فقد أفلح تلك الليلة في

ان يثير شفقتي . كان طرف برنسه ما يزال فوق جبينه حين رأيته يحني رأسه فجأة ويخفي وجهه . كانت كتفاه ترتجفان ، والشهيق ينبعث من حنجرته . فنظر بعضنا الى بعض ، كان عمر يبكي فأصغينا اليه بصمت ومطت نانا شفتيها ورفعت يديها الى عينيه ، فرفع رأسه وأراني وجهه المتغضن ، هذا الوجه الذي لم يكن مرآه جميلًا . لم أكن قد رأيت رجلًا يبكي قط . كنت أعتقد ان هذا امر مستحيل . لم يكن في استطاعتي ان افهم كيف يبكي الرجل . وشعرت ان عمر لم يكن من الكبر او القوة في شيء . انه ليقاربني ، ويصبح رفيقاً بل صديقاً لي وحينما رأينا دموع نانا انخرطنا أنا وبابا في البكاء .

أما خالتي فلم تبك ! لقد انفجر غضبها . هذه هي اللحظة التي كانت تريد ان تمسك فيها بالعجوز وتجعلها تدفع ثمن كل مذلاتها وظلمها ومساوئها ، ما جدوى البكاء الآن ؟

— ابقيا كلاكما ههنا . ان عندنا لمتسعاً ! ان اهلك لا يرغبون فيكما ؟ حسناً . ستظهر لهم انك رجل ، ولن تحتاج ، بفضلنا ، الى شيء ..

أواه ! اجل ان خالتي كانت تحسن التعزية وكانت ترمي بنفسها في الماء نكاية بالعجوز ، وتضحي بنفسها في سبيل الدين . ولم يلبث ان عمر ان تعزى واستقر في بيت خالتيّ وراحتا تستلطفانه بشتى السبل . ولقد خسرت أنا كثيراً بهذا التغير . اما العجوز فقد راحت تروي في المدينة ان بنتي احمد قد سلبتاها ابنها . لم تعد امي غاضبة وأصبح ابي

اكثر صمتاً من ذي قبل . واما ذُكر عُمر فقد كانت خالتاي تظهران كثيراً من الشراسة .

لست اعرف بالتحقيق كيف استطاعتا ان تؤمنا له سبيل الرحيل ، فقد عاد الى فرنسا في صباح جميل مع فكرة مبيتة في ان ينسى كل شيء . ولم يعد احد يتحدث عنه بشيء . اعتقد الآن انه قد مات ، فكل الناس يقولون ذلك . اما انا ، فانني ، عن خطأ او عن صواب ما ازال احقد عليه دائماً . لقد كان سبب آلامي الاولى .

إن ذكريات الطفولة تنقصها الدقة والترابط : فالمرء يحفظ بعض الصور المؤثرة التي يستطيع القلب ان يربط بعضها الى بعض دائماً حين يثيرها . اليكم مثلاً مشهداً ما ازال اراه بوضوح شديد : أنا وحدي في المنزل مع امي . كان الجو بارداً وكنا في فصل الشتاء . وكانت تلتهب في الكانون نار مضيئة من أغصان الزيتون وهي تطقطق . وأمالت حطبة كبيرة كانت تستند الى الحائط رأسها الى النار فلحسها اللهب بلطف ، وراح يسودها شيئاً فشيئاً ثم بدأ يلتهمها . دخلت نانا مقرورة ، واتجهت نحونا قرب الموقد . كانت ترتدي سترتها البيضاء ذات الازهار الصغيرة الوردية . وفوطتها القطنية معقودة على خاصرتيها بخيط كبير احمر يقوم مقام الزنار ، فهي لا تتحمل الزنار القطني الذي يضعه الناس عندنا عادة . فاقتربت بلا مبالاة دون ان تتكلم وعليها دلائل الغم ثم باعدت رجليها المبللتين الحمراوين من البرد وجلست فوق النار تماماً ، وابعدت اطراف سترتها عن اللهب .

قالت لها امي :

– أتشعرين بثقل ؟

– أشعر بتمزق في عروقي .

– أهو الشهر السابع ؟

قالت نانا :

– كلا ! احسبي بدءاً من شهر اشورا . نحن في الشهر الثامن .

– ان بطنك لا تقلقني .

– نعم انها ليست كبيرة كما ترين . قد يظن المرء انني اتغذى جيداً وحسب . أما انا فأعرف ان ذلك يؤلمني .

فابتسمت امي من غير قناعة . وانا نفسي رأيت حين نظرت الى نانا ان وجهها شاحب وشفتيها منتفختان ، وعينيها متورمتان . ولم يكن عليها مظهر من يتمتع بصحة جيدة .

– ان البكر لا يجعل البطن تنخفض ، سترين انك ستصبحين جميلة بعد الولادة كما كنت من قبل ، بشرط ان يكون المولود صبياً .

– اوه ! انك لم تضربي لي المثل الحسن يا اختي يوم أنجبت ثلاث فتيات . انني اسأل الله الرحيم ان ييسر لي اجتياز هذه التجربة وحسب . فهذه الآم التي تجتاحني منذ البارحة تقلقني جداً ، ولهذا السبب جئت لرؤيتك .

قالت لها امي :

– لا تخشي شيئاً وكفي عن التفكير بآلامك .

ـ انني أرى أحلاماً مخيفة ، فبالأمس ، فيما بدالي ، سمع الناس من الجمعة صوت المرأة التي رزقت توأماً .

ـ انت بين يدي الله يا صغيرتي . انت لم تسيئي قط . وهذا اوان يكافئك فيه الله . ثم انني سأكون هناك وسأساعدك فاطمئني .

وتحدثنا طويلًا وبتوريات احياناً . لم اكن افهم كثيراً مما يقال ، ثم وجب ان تريها نانا بطنها . ولم يكن في ذلك حرج أو خجل . فقد كنت دماً من دمها . وكنت مختلطاً بها . . .

وفي شريط ذكرياتي يتبع ذلك المشهد المشهد التالي مباشرة : الوقت شتاء والمطر يسقط والأزقة موحلة والمزاريب تهدر ؛ وسواقي من الماء الوسخ تحيط بحجارة الطرقات ؛ وتبدو البيوت الصغيرة المنخفضة أصغر ايضاً مما هي اذ يلتصق بعضها ببعض بكآبة وتتلاشى وتختفي في الضباب الذي يسقط عليها قبل حلول الليل . دخلت بيت خالتي . كان فيه اناس . المصباح البترولي الصغير يدخن بغزارة على الخابية وفي الكانون تتآكل قطعة من الحطب . وقفت بايا امامي ، وعليها سيماء الاهتمام الشديد ، وسبابتها على فمها . فأصررت على البقاء . كلا ! لن اخرج. كانت امي ، وشفتاها مضمومتان ، تمسك نانا من تحت ابطيها ، تحاول ان ترفعها لترغمها على المشي . وكانت نساء اخر يخفين عني وجه نانا ، وكانت واحدة منهن تساعد امي في هذا الجهد وكانت خالتي تحرق على قطع من الفحم ، في صحن قديم ، شيئاً راح يدخن وينشر رائحة قوية . وكانت ثمة عجوز تصدر الأوامر بصوت فيه ايجاز وسلطة .

كانت عينا خالتي الجميلتان تنظران الي دون ان تريائي فهربت .

حين عدت الى المنزل همست تيتي في اذني قالت :

– غداً ستقبل ابن نانا .

لست اذكر شيئاً آخر شيئاً آخر غير ذلك . فأنا اجهل ماذا فعلت في البيت ، وكيف نمنا في غياب امنا وما جرى اثناء الليل .

أيقظتني فجأة صرخات امي واخواتي : لقد لفظت نانا اللطيفة أنفاسها . اواه ! سأذكر ما حييت هذه الصرخات ، والغم الهائل الذي جعلني اقفز وانهض من فراشي وانبح من الذعر . وكلما سمعت نساءنا ينحن على الموتى ارتجف رغماً عني ، ذلك بأنهن يذكرنني دائماً الاستيقاظ الممزق الذي حمل الي نبأ موت خالتي .

ماتت خالتي بين ذراعي اختيها بعد ليلة من الألم . لقد ولدت شيئاً مسكيناً بارداً رافقها الى المقبرة . بل هو الذي جرها إلى المقبرة ! ظلت الجثة الصغيرة معلقة بأمها منذ اول الليل . وضعفت نانا شيئاً فشيئاً ، وكان يُغمى عليها في كل لحظة . وما اسرع ما غدت كالأطمار. كان يُسمع صوت احشائها تصطك وأمواج من الدم تسيل ، يرافقها جَرجَرة كجرجرة جرة مسكوبة . كان لمجهود قليل ان يفصل الثمرة الفاسدة نهائياً ، ولكن الله لم يرأف بخالتي ، ووجب ان تنتهي عملية الولادة بالموت . وظلت تنازع أنفاسها حتى الصباح ثم انطفأت ببطء مع انطفاء آخر نجمة .

إنني لأرى نانا ممدة على ملاءة عرسها مدثرة بغطاء أبيض ، ومنديل

من الحرير الأصفر يسند ذقنها ويحيط بوجهها الصغير . كانت عيناها مغمضتين ، ومنخراها منضمين ، ووجهها شاحباً بلون المنديل . إني لأرى جيداً أنها ليست نائمة ولكن هناك أشكال شتى للنوم ، فهناك نوم التعب الثقيل ، ونوم الاستراحة الصحية الهادئة ، ونوع المرض المضني . أما الموت فشيء آخر . والآن إذ أتخيلها وافكر فيها ملياً بعد ان رأيت كثيراً من الموتى غيرها ، يبدو لي وجه نانا خالياً من أي تعبير ، ليس فيه أثر من آثار الابتسام أو الثورة ، ولا معنى الألم أو الراحة . لا شيء . وهذا هو معنى الموت . إن شخصاً عزيزاً ينازع أنفاسه ، فلا تبحث عن شيء يربطه بك . إن برنساً معلقاً في مكانه المألوف ليذكرنا بمن كان يرتديه اكثر مما يذكر جثمان الميت بالانسان الذي كان حياً . ماذا كان يقول وجه نانا اللطيفة ، وجهها الذي كنا جميعاً نحبه وكان يبسم للجميع ؟ لقد أخذ الموت كل شيء ، وخلف وراءه قناعاً لا مبالياً ينتصب امامنا فجأة كأنه حاجز حقود يتوجه إليه ألمنا فيصطدم به على نحو بائس من غير ان يخلّف وراءه أي صدى .

١١

لم يكن ما ألمّ بنا ، في عرف جميع سكان القرية ، أمراً خارجاً عن المألوف ، ذلك بأن الموت يحصد باستمرار أناساً في زهرة العمر . ويبكي الناس وينتحبون حتى لتبح اصواتهم مدة اسبوع ، ثم ينتهي بهم الأمر إلى ان يقولوا انهم ظلوا على قيد الحياة بعد الميت ، وألا مفرّ من هذا البلاء رغم كل شيء ، اذ لا شيء يستطيع ان يؤثر على ساعة القدر التي لا ترحم . وان بلاء لا درء له لبلاء يتحمله الانسان دائماً .

لقد شاهدت امي موت احد اخوتها وبعض اخواتها وامها ثم ابيها ، فألِفت الألم والصمت ، انها تشبه اشجار السنديان غير النامية التي تنبت على حافة الطرق ، فتصر على ان تتغـــذى رغم سوء الظروف ، من المعزى التي تأكل اوراقها كما تشاء ، وفؤوس الرعيان التي تبترهـا من غير شفقة . لقد اعتادت امي ان تتلقى الاحداث بأن تزم شفتيهـــا الرقيقتين ، فهي رواقية من غير ان تبذل جهداً او هي عديمة الشعور نتيجة توالي المصائب عليها . ستتحمل هذه الضربة كما تحملت ما سبقهـا من ضربات وستعود الى حياتها محاولة نسيان ذلك .

اما بالنسبة لحالتي فقد كان الأمر مختلفاً ، فلم تكن نانا اختالها وحسب بل كانت جزءاً منها ، بل الجزء الافضل . ومنذ بداية الألم

اتخذت عينا خالتي ثباتاً عجيباً . كانت تنظر من غير ان ترى . وتسير كأنها تمثال متحرك ، فلا تجيب احداً ، ولا يبدو عليها انها تفهم شيئاً . ولم تكن تبكي في النهار بين زفرات الناس ونحيبهم ، كانت قد جلست عند قدمي الميتة غير آبهة لحركة الزائرين او لتهيئة الميتة للدفن ، جامدة كالتمثال . وكانت أمي التي وجب عليها ان تهتم بكل شيء تلتفت بين الفينة والاخرى الى خالتي وتحدجها بنظرة مشدوهة . وجاءت اللحظة التي لزم فيها ان يخرج الجميع ليتيحوا للغاسلات ان يهيئن زينة نانا ، ورغم كل التوسلات فقد رفضت خالتي ان تتحرك وكان من المستحيل اقناعها ، كانت تنظر الى الناس والاشياء نظرة من يمشي في نومه . وكانت تُرى عضلات وجهها ترتجف احياناً ، وجفناها يعلوان ويهبطان بسرعة ، ويدها تسحب على عجل اسفل سترتها ، ثم يتصلب جسمها كله من جديد . وحينما جاء الحمالون ليرفعوا جسد نانا استطاع الناس ان يروا الدموع تنبجس من عيني خالتي ، ولكنها كانت نوعاً من الدموع الباردة التي لا يصحبها اي تعبير في الوجه او صراخ .

من عادة الاقارب أن يشيعوا الميت الى خارج القرية . وتألف موكب من امي وأخواتي وبنات عمي وكل بني موسى ليشيع يمنة الطيبة التي مضت الى مقبرة تيزي الكبيرة حاملة معها لطفها وابتسامتها وذكاءها الى قبرها تحت شجرة الزيتون الخالدة الآهلة بالبوم والأشباح . كانت النسوة جميعاً يبكين وهن يتذكرن شمائلها . ولو كان في استطاعة

تانا أن ترى كل هؤلاء الناس ، لحمل اليهـــا ذلك شيئاً من العزاء عن ذهابها .

لكن خالتي لم تكن في الموكب . وحين لحظت امي وأخواتي غيابها ، كان الوقت فات لاخراجها من المنزل . فقد أغلقت البوابة ثم الباب . ومهما طرقنا الباب وناديناها وتوسلنا اليها فقد ظلت لاتبالي بتوسلاتنا كأن لاشيء في العالم بعد اليوم يستطيع أن يربطها بالأحياء. وثارت أمي بدورها بعد أن تعبت من التوسل وتوقعت حدوث مصيبة جديدة . وحل الغضب في نفسها محل الشفقة ، واستسلمت الى شعور من التمرد الرهيب ، لاضد خالتي ، ذات القلب الضعيف المنسحق ، ولكن ضد القدر الذي لايرحم ، القـــدر الذي لم يكن يرفض ضحية جديدة .

قالت وهي تجرني من يدي :

— تعالوا يااولادي . أما أنت يارب فاني أتخلى لك عنها ، ولك ان تأخذها الى جوارك فهذا كل ماتتوق اليه ، ماذا عسى ان افعل بشيء محطم ؟ اواه ان نصرك سيكون سهلا لافضل فيه .

وعدنا الى منزلنا مكتئبين .

حاول ابي وعمي وبعض الجارات المواسيات ان يحملن خالتي ، عبثاً، على الكلام من خلال الأبواب المغلقة واذا كان الليل يقترب جعلت امي تبكي وهي تنكر بأن اختها الشديدة الوسواس ستنام وحدها مع ذكرى الميتة . فكانت تمضي لتترجى اختها مرة اخرى ، فتصغي بانتباه

وتسمع مشية خالتي . عند ذاك كانت تخاطبها بقسوة وتؤنبها لعدم شجاعتها واذعانها لله وقلة محبتها لمن بقي ، وانانيتها ، وتلزمها بأن تفتح الباب وتأتي لتمضي الليل عندنا او لتدعنا ننام معها . ولقد توقفت خالتي عن المشي فلم نسمع بعد شيئاً وتركناها .

وقريب منتصف الليل بدأت خالتي تتكلم وحدها وهي تضحك وسرعان ماراحت تبعثر الأواني بجلبة كبيرة وتطرق الخابية طرقات قوية . ثم سمعناها تغني اغاني شتى من دينية واباحية ، بصوت عال فتنشد نشيداً بذيئاً مع مدائح للنبي ، وتتغنى بجمال عذراء مع مراثي الموتى . وتعذر النوم على الجيران فجاؤوا ينبؤننا بأن خالتي تهذي ، فرحنا ننتظر امام البوابة حتى مطلع الفجر ونحن مكتئبون عاجزون عن الكلام . وعندما اوشك الصبح ان يظهر فتحت خالتي الأبواب وهي تضحك للجلبة .

فتسارعنا اليها . ياله من مشهد ! كانت الاغراض مرمية على الارض شذر مذر والرفوف خالية وفرش السرير مبعثر . ورأينا ، في ضوء الفجر الضعيف ، كوماً شتى من الثياب والأواني في كل أرجاء المنزل . كانت جرة الماء الكبيرة مقلوبة وعتبة البيت مغمورة بالماء ، والخابية مضجعة على طرفها وقد غاص نصف رقبتها في تلة من الشعير . وانتصبت خالتي وسط هذه الفوضى مستقيمة القامة يتموج شعرها بحرية على ظهرها وكتفيها . كانت جميلة في مظهرها هذا . ولحظت امي والنساء الآخر ذلك ايضاً ، ولكنهن ادركن انه قد قضي الأمر ، فرحن يبكين إذ ذاك . كانت امي

تخشى هذا المصاب الجديد بالذات ! وركض الجميع كما حدث البارحة وازدحمت الدار الصغيرة . إن الناس لما يفرغوا من أمر بنات احمد المسكينات .

كان بعض الزائرين يطمئنوننا بان الامر لا يعدو نوبة عابرة . وقد حدثت مثل هذه الاشياء قبل الآن . ومع ذلك فقد كنا جميعاً هناك ، ملتصقين بعضنا ببعض في الباحة الصغيرة ، كي ننظر الى خالتي ، وننتهز أقل بادرة من ذكاء في نظرتها الخاليـــة من المعنى ، ونعطي تفسيراً معقولاً لشرودها البائس .

جلست خالتي على عتبة الباب بعد ان تعبت ، لاشك ، من رياضتها الليلية ، وراحت تنظر إلى الوافدين بوقاحة . وكانت بين الحين والآخر تجذب خصلاتها الى صدرها وتتلهى بعقد شعرها الجميل ؛ ثم كانت تشده بقوة وترمي قبضة منه وهي تفغر فمها من الألم . ولما كانت ساقاها النحيلتان منفرجتين بلا حياء ، فقد حاولت امي ان تضمهما في جلسة اكثر لياقة . فزمجرت خـالتي مستاءة ورفعت اسفل سترتها بسرعـــة وكشفت عن بطنها ، فغضّ الرجال ابصارهم ، وخرجوا يهزون رؤوسهم ، وتركوا النساء وحدهن امام هذه المجنونة . وخفضت خالتي رأسها خجلة ، فنظرنا إليها بانتباه ولم تكن تفوتنا أية حركة من حركاتها . وبدا انها لحظت ذلك بفضل بقية غامضة من الشعور . وربما ظن المرء انها كانت تستعد للقيام بعمل سيء ، وان مظهر الخضوع البادي عليها كان حيلة ماهرة . امسكت امي بيدي وبريق من الأمل يشع في عينيها واقتربنا

من خالتي لنعيدها الى صوابها .

– انظري الى صديقك الصغير . أيجب ان يخاف منك ؟

فتطلعت اليّ بعينين لا تنمان عن المعرفة ، بعينين فيهما نظرة ترفض ان تتعرفني ، وتلتمعان ببريق عجيب مرة ، او تنطفئان فجأة يغطيهما برقع غير مرئي ، فتحدجانني وتتوغلان فيّ ثم ترتدان عني لتغيبا في المجهول . اواه ! يا لعيون المجانين ، انني لا املك مشاعري حين أراهن في أي مكان . لهن وحدهن يعكسن ألم النفس ، ويبحثن تائهات عن اشياء لم يعد القلب او الدماغ يمتلكها . ولهذا فهن مذعورات خائفات مخيفات يستدررن الشفقة . تُرى لماذا لا يمنح الله المجانين ان يكونوا عمياً ؟ إني اعتقد ان ألمهم سيكون اقل وطأة .

لقد ارتجفت خوفاً أمام من هدهدتني وأحبتني كثيراً . وكانت ينبوعاً من العذوبة والاحلام بالنسبة الي . لقد خانتني شجاعتي أمام من علمتني ان اعجب بالشجاعة وأبكي شفقة . اتراها لحظت ذلك ام ان المصادفة عاقبت جبني ؟ لقد امسكت خالتي بي بشره وطبعت على خدي قبلتين كبيرتين ثم ادارت رأسها وراحت تضحك ببلاهة .

وعلقت النسوة باشفاق على هذه القبلات الحارة . وكانت تلك هي اللحظة التي اختارتها المجنونة لتجتاز الباحة بقفزتين وتختفي في منعطف الشارع لاتلوي على شيء . واسرعنا خلفها . كانت تسير في خط مستقيم بسترة من غير حزام تصطفق بكعبيها . وكان شعرها يتموج على كتفيها . وكان الاولاد الذين يلتقون بها يتنحون لمرورها . ولقد وقعت فجأة امرأة

عجوز حاولت ان تستوقفها . وجرتنا خلفها الى خارج المدينة . ولكن الانذار كان قد اعطي ، فراح ابناء اعمامنا يجرون خلفها فأمسكوا بها واعادوها رغم التوائها وضرباتها وصرخاتها وشتائمها .

وعادت ، لا الى المنزل الصغير ، بل الى منزل اهلي ، فأغلقنا بوابتنا ، وظللنا وحدنا معها . كانت تبرق عيناها ، ويلتمع وجهها الذي لفحه هواء الصباح الندي . وكان يظهر عليها أنها تحتقرنا ، وتبدو أنها تتهددنا بالثأر كأنها خصم عنيد ، ولم تكن تخفض عينيها طائعة الا امام وجه ابي العابس ، ولهذا كنا نتمنى ان يبقى في البيت لأننا بدأنا نخافها ، ومع ذلك فقد كان عليه ان يذهب الى شئونه . كانت خالتي تضحك سروراً . إنني ماازال ارى المشهد . كانت تسند ظهرها الى الحائط قرب الطاحونة ، وكنت واقفاً بعيداً عنها ، امام الباب على اهبة ان اتوارى ، واستحسنت تيتي افضلية وضعي فأرادت ان تجتاز المنزل لتأتي الى جانبي . ولما مرت امام خالتي امسكت بها من شعرها بقوة :

— تعالي يابنتي ، لاتخافي من خالتك !

فارتمت تيتي على الأرض وهي ترسل صرخة فزع ، وقفزت انا الى الخارج تتبعني بابا ، وتدخلت امي فأمسكت بها خالتي ايضاً . وجلبت نداءاتنا حليمة وبناتها والجارات فنجحن في السيطرة على خالتي وحرسنها معاً حتى عاد ابي .

كم امضينا من ايام تاعسة ! إن مصير خالتي كاد ينسينا نانا المسكينة

التي لم يكد قبرها يغلق وهانحن اولاء الآن في ضيق شديد ، ماذا نفعل بخالتي ؟ لم يكن عندنا الا منزل واحد فأين نؤويها ؟ بل اين نحبسها ؟ ذلك بأن من الضروري ان تحبس لكيلا تؤذي احداً او تهرب ، وكان هربها على الأخص يشغل بال والدي . ولقد سمعته يتحدث عن هذا مع بعض اعمامنا ، وكانوا يخشون اسوأ الأمور إذا هي هربت . ومن يدري ؟ لقد كانت شابة ، وقد تذهب الى بلد غريب فتلطخ سمعة الأسرة . أيفكر الغرباء في الحفاظ على مجنونة ؟ ان هذه المهمة تظل موكولة الى الاسرة . ثم ان خالتي كانت تشكل خطراً على الاولاد في المنزل ، فقد تظهر شراستها . كيف يبقى الكبار معها دائماً ؟ كان الحل المعقول الوحيد ان تقيد رجلاها ريثما تشفى او تصبح ألطف .

ومنذ اليوم الثاني ترك اهلي خالتي ، اذ ذهبوا الى الحقل ، معي ومع تيتي . كانت رجلاها مقيدتين تقييداً محكماً بحبل من شعر الماعز كان يلتف حولها حتى يبلغ عجزها ويربطها الى احد عُمُد السقيفة ، فكانت لا تستطيع إيذاء احد وهي على هذا النحو . ولكنها كانت تستدر الشفقة حتى بالنسبة لقلوبنا نحن الأطفال ، وإني لأذكر ان اختي لم تكن تستطيع ان تنظر اليها من غير ان تبكي ، واننا كنا نرفض ان نخرج لنلعب ونتركها وحدها دقيقة واحدة الى ان تعود امي وبابا .

كنت في الليل أنام مع اختي في السقيفة . وكان ابي يفك خالتي

ويأمرها ان تأكل . كان يخاطبها بلهجة الآمر . كان كلاهما مخيفين وكان كل منهما يفحص الآخر بنظره . ثم شرعت خالتي تصرخ ، فتركها وشأنها ، وفي لحظة ما رأيناها تقبض على صحن الكوسكوس ، وتأكل منه بيدها في نهم : فقد سقطت الملعقة بين رجليها . وفي لمحة بصر فرغ الصحن ، وقبل ان يتدخل ابي ، رمت خالتي الصحن الى الباب فطار شظايا .

كانت امي مستاءة ، ولكننا لم نكن إلا في البداية . فلم يكن في وسعنا أن نرعى مجنونة او نتحملها مع كل نزواتها . كان القدر قاسياً جداً على اهلي ، إذ كان عليهم قبل كل شيء ان يسهروا ، كل بدوره ، على خالتي التي قد تقوم بعمل سيء في المنزل ، كأن تشعل البيت ناراً ، او تقلب جرة الزيت ، او تخنق الخروف او ابن اختها بكل يسر . وما ان تتحرر يدا خالتي حتى تروح تتلهى بتمزيق سترتها الى قطع صغيرة . كانت تريد ان ترتدي الاسمال ، ولم تكن تتأخر في تهديم اختها ، فاذا ما تمزقت السترة الموروثة عن نانا المسكينة ، لم يبق عندها ما ترتديه ، ولم يكن باستطاعة ابي ان يبتاع لها ثوباً جديداً وغدت خالتي التي كانت مفرطة في النظافة منفرة آخر الأمر : فكانت تخاف الماء كما تخاف النار ، ولا تسمح بأن يُسرح شعرها ، وتوسخ في في مكانها ، ولم يكن منزلنا يوماً متسخاً ، كما كان في تلك الأيام السيئة . والغريب في الأمر ان خالتي كانت تلتهم كل ما يقدم لها .

وكانت صحتها افضل مما كانت فيما مضى . فسمنت وتحسن لونها وغدا صوتها مرناً . كان لها كل ما للحيوان ، ولكنها لم تسترد عقلها . اما امي فقد خارت قواها وضعفت ، حتى اشفق عليها الجيران ولكن الشفقة لم تكن تنفعنا في شيء . لقد كففنا عن الرثاء لخالتي لأننا رأينا انفسنا اجدر منها بالرثاء . وتمنينا خلاصاً أياً كان نوعه .

اني لأذكر ان خالتي قد اصبحت فجأة ، في فترة ما أكثر هدوءاً . كانت قواها قد انهارت ان صح التعبير ، فلم نعد نوثقها . كانت تجلس منذ الصباح على مقعد حجري صغير أمام الباب وتظل جالسة هناك طوال اليوم ، وهي مغمورة في تأملات لا نهاية لها ، وكان القمل الكبير الذي يتكاثر في أسمالها يتدفأ في شمس الشتاء العذبة . كان محظراً علينا أن نكلمها أو نلمسها . وكانت أمي تقول أن ذلك بسبب بدرة القمر ، وكانت تتوقع عودة النوبة العصبية في الربع الأخير من القمر وفي أوله . أما الجارات فقد كن يزعمن أن الأرواح كانت تعمل على تلقين خالتي أسرار الساحرات ، وانها سوف تتنبأ عما قريب . وسنكسب إذ ذاك ما يطعم الأسرة ببحبوحة .

يجب ان اعترف ان أبي كان يولي هذه الافتراضات اهتمامه ، نظراً لأن حياتنا كانت قاسية . اما امي فقد كانت تثور لمجرد التفكير بالاستفادة من مثل هذه المصيبة . فلم تكن تريد ان تصبح احدى بنات أحمد ساحرة . ما افضل البؤس ، بل ما افضل موت

المجنونة ! اما ما كانت تتمناه فهو ان تؤخذ اختها الى الشيوخ المشهورين في (زاوياس) ليحاولوا فك السحر عنها .

ولكن ، بالاضافة الى انها لم تكن تؤمن كثيرا في مقدرة الشيوخ على شفائها فلم يكن من اليسير على ابي ان يسافر مع فتاة مجنونة . كان ذلك يتطلب منه مالاً ودابة ورفاقاً ، وان يوقف العمل ويترك الحقل والمنزل ويقبل بفكرة المخاطرات غير المتوقعة ، وألا يؤمل كثيراً في الشفاء .

استعاد آل منراد نمط حياتهم العادية شيئاً فشيئاً ، بعد ان طمأنهم وضع خالتي الجديد ، إذ اصبحت هادئة لا تؤذي احداً . وكان ان نسي اهلي ، وهم في غمرة مشاغلهم وهمومهم ، المجنونة ، ولم يعودوا يفكرون بها إلا حين يرونها في المنزل . وغدت آخر الأمر فماً إضافياً يجب اطعامه ، وفقدوا الأمل شيئاً فشيئاً في شفائها كما فقدوا عادة السهر عليها . وكان يحدث أن تخرج خالتي وحدها او تذهب عند هذه الجارة او تلك . وكانت في العادة تفتح باب احد المنازل مصادفة فتقف على العتبة ولا تقول شيئاً ما ، كانت تمد يدها بغير مبالاة ، شاردة النظر دوماً .

وفي ذات مساء لم تجد فاطمة وبايا ورمضان خالتي حين عادوا من الحقل . اما تيتي التي امضت النهار في الباحة وزازو الصغير على ظهرها فقد رأت خالتها تخرج بعد خروج اهلها بلحظات ، وانا بنفسي حاولت

ان أقفها حيثما مرت امام المدرسة حوالى الساعة العاشرة ، فقالت لي :

– دعني أرى اختي .

ونفرت الدموع من عيني امي وهي تستمع الى كلامي . كانت تلك هي المرة الأولى التي تتحدث فيها خالتي عن الميتة . أهي بشير الشفاء ؟ ولما كانت المقبرة تقع على مسافة قريبة من المدرسة فقد حثني أبي على الذهاب اليها مع تيتي ، على امل أن اجد خالتي فوق قبر نانا . وكانت امي واثقة بذلك . ومع ذلك فلم يكن أحد في المقبرة . فقرروا الذهاب الى الحي ، ولم يكن هناك احد كذلك . وبعد ساعة من البحث ، علم أبي من أحد الرعاة أن خالتي قد ذهبت الى (أمالو).

ان أمالو هي حقل الزيتون والتين الذي تركه احمد لبناته الثلاث . وهو عبارة عبارة عن قطعة صغيرة من الأرض تقوم في غور من واد عميق يمر فيه تيار جموح ذو سرير هائج ضيق كثير الصخور . وثمة طريق صغير يحف به العوسج والمصطكى من كل جانب ، يجري متعرجاً من القرية الى أمالو . ان المرء يهبط اليه في نصف ساعة أما الصعود منه الى القرية فيستغرق ساعة . كنا في شهر آذار والظلام يكاد يخيم . ولم يكن أبي الذي أمضى يوماً من الفلاحة متعباً لينزل حتى امالو كي يعيد المجنونة . ولا سيما أنها كانت هادئة في هذه الأيام . ويمكننا ان نتخيل انها ستمضي الليلة في كوخ صغير مغطى بالتبن قائم في زاوية من الحقل اعتادت بنات احمد ان يضعن فيه بعض علب العلف قبل أن

يبغنها . ولما كانت خالتي تعرف الأرض حتى اصغر زواياها فقد أعلنت أمي ان اختها ستذهب غريزياً لتنام في كوخ التبن ، بل ربما سكنت أفكار المجنونة ليلة في الهواء الطلق فوق الاعشاب الطويلة . ترى هل تعود المتاعب ؟ كان في المنزل شيء من الضيق والملال . والخلاصة اننا لم نكن لنبالي اكثر مما ينبغي .

تغير الطقس فجأة في الليل ، كما يحدث ذلك دائماً في شهر آذار ، فأمطرت السماء وطقطق المطر بقوة فوق الأسطحة ، وعصف الهواء عصفاً حزيناً على طول الشوارع وتسلل بين شقوق الأبواب . فشرعت امي تفكر بأختها ، وحاول أبي ان يطمئنها ولكن مشاعر كئيبة كانت تخالجها. وإذا تعب أبي من الاستماع اليها ، وتضايق وسعه ، نهض وارتدى ثيابه وخرج . وسمعناه ينادي أخاه ليشاوره في الأمر ، وايقظا بعض الجيران ثم عاد الجميع الى البيت ليبحثوا الموضوع . كانوا خمسة أو ستة ، قد انتعلوا احذيتهم الجلدية وتلفعوا ببرانس قديمة ووضعوا على رؤوسهم قبعات وعقدوا اطرافها خلف اعناقهم . كانوا متسلحين بالعصي ليهتدوا بها في الظلام . وتضاعف سقوط الأمطار أثناء ذلك ، ولما خرج الرجال كانت قطرات المطر تتساقط كأنها زخات البرَد . وغابوا في الليل المظلم وتركونا قلقين ، كما مضوا هم أيضاً مكتئبين صامتين ، يغوصون في البحيرات الصغيرة الموحلة متتابعين كالأشباح ، واستطاعوا ، من أسفل الهضبة حيث تتعلق القرية ، أن يسمعوا صوت شلال أمالو يزمجر بغضب .

عندما استقيظت في الصباح رأيت برنس أبي معلقاً على مشجب في قرب الباب ، كان البرنس مبللاً متسخاً والماء يتساقط منه في العتبة ؛ وكان أبي يغوص تحت الغطاء ، نائماً في أحد الأركان ، وكانت عينا امي محمرتين . لم يعثروا على خالتي . ولم يستطع احد ان يراها وظل سر اختفائها لغزاً بالنسبة لكل الاسرة . اما انا فأعتقد انها ماتت بعد ان حملها السيل العاتي الذي يمر بالقرب من الكوخ .

ثمة جثث متورمة ، منتفخة البطن كالبالون ، تملؤها كلها بقع زرق ، مسودة الأجفان ، منتفخة الشفاه ، يبرز قسم من ألسنتها المنتفخة من طرف فمها ، يزدحم بها أحياناً نهر (سبار) أو روافده في سهل تيزي ـ اوزو على ضفافه الواسعة المتراخية . ترى هل ألقى النهر بجثة خالتي كما ألقى غيرها ؟ إننا لن نعرف ذلك أبد الدهر . وحين يعثر على أحد هؤلاء الموتى فان الخبر ينتقل من قرية الى قرية ، ويمضي الناس ليتعرفوا الجثة ويحملوها الى قريتهم ، وتقام لها مراسم الدفن وفق العادات المتبعة ، وإلا فانها تدفن في مكان لا يعرفه إلا الله وتكف الاسرة عن انتظار المفقود .

وهذا ما حدث لنا . لم نجد أي أثر لخالتي ، رغم مضي اسبوع من البحث . وغدا من المشكوك فيه أنها نزلت الى الحقل ، وان الراعي لم يعد يؤكد اي شيء منذ ان تبنت النسوة اقتراحاً آخر : فأنا لم أكذب حين نقلت أقوال خالتي حين مرت امام المدرسة ، وسارعن

الى الاستنتاج أن المجنونة قد انتقلت من الحياة كقديسة في الأزمنة المقدسة ، لتلتحق باختها المحبوبة ، بوسائط أرضية كما لو أن الأمر يتعلق بتغيير مسكن ما . إلا ان العقلاء من الناس لم يؤمنوا بهذا . اما امي فقد كانت في حزنها تندب الموت الرهيب الذي اخذ اختها .

لعل من المبالغة أن أقول أننا بكينا خالتي كثيراً . فمنذ موت نانا كان مأتم دائم في المنزل ، غير الضيق الذي تحملنا . واذا ما استثنينا شيئاً من الحزن ومن الشفقة فقد كنا بالأحرى متعبين ، من وضع الاشياء هذا ، وكنا نتمنى بحرارة شيئاً من الفرح والسعادة . ولم يشعر احد شعوراً رهيباً بهذا الفقدان غير أمي . كانت تقول إنها رأت سقوط الغصن الاخير من شجرة الاسرة ـ يا له من غصن بائس في شجرة جافة ـ وانها ستظل وحيدة بعد الآن . وان لم يعد لها من ملجأ غير سقف زوجها أو محبة إلا محبة أولادها . وكانت في بعض الأحيان تؤاخذ نفسها أنها أهملت أختها .

ولقد فهمنا ، نحن الأطفال ايضاً ، أننا فقدنا شيئاً ما ، فقد باع أبي منزل خالتي الصغير لاحد أقربائنا الذي هدم الحاجز تواً ، ولم نبال بالحقل المفجع الذي باعه أبناء عمنا ، بنى موسى ، وتقاسموا ثمنه . لم يعد لنا ملجأنا العذب ، عشنا العزيز . لم يعد لنا باستثناء اهلنا انسان نحبه ويهتم بنا . لم يعد أمامنا إلا أن نلتصق بخوف حول أبينا وأمنا .

الأبن البار

ان مجدي اليوم ليقوم على هذا العوز الذي تحمله أهلي بشجاعة ونبل . أما بالأمس فقد كان يبدو لي عاراً ، وكنت اخفيه جاهداً . يا للحياء البشري الرهيب !

ميشله

هذا هو الجزء الذي يستطيع كل امريء أن يقرأه في الدفتر الكبير المسطر الذي تركه منراد فورولو . ان الراوي الذي عرفه وقدمه للقراء يرى لزاماً عليه بعد هذا ان يمضي حتى النهاية . أيجب ان نكرر القول بأن فورولو صمت تواضعاً أو خجلاً ، وانه سلّم القلم الى صديق لا يخونه ولكنه لا يجهل شيئاً من قصته ، الى أخ طلعة ثرثار . ليس على شيء من سوء النية وان الناس ليسامحونه وهم يبتسمون ؟

أي فورولو ، ربما تكون . قدمت حين ننتهي من سرد كل ما يتعلق بك . ذلك بأن الحياة ليست طويلة في الحق. فهل يعلم أولادك وأحفادك انك تألمت ؟ اجل ان من المستحسن ان يعرفوا ذلك . ولكن سيكون عليهم أن يتعذبوا هم أيضاً ، ويحبوا ويكافحوا . أية امثولة ينبغي ان نعطيهم ؟ وتتمتم أنت « امثولة ، ليس هناك من امثولة . » انني ارى ابتسامتك العذبة المستسلمة .

أنت تريد ان يصمت الراوي . لا ، دعه يتكلم . فليس عنده كثير من الخيالات ، ولكنه يحبك جداً . سيروي قصة

حياتك التي تشبه آلافاً من الحيوات غيرها مع هذا الذي يميزها رغم كل شيء وهو انك طموح ، يافورولو ، وأنك استطعت ان تنشيء نفسك وربما راودتك نفسك أن تحتقر الذين لم يستطيعوا ان يفعلوا ما فعلت .

ستكون مخطئاً ، يافورولو ، فما أنت الا حالة خاصة . أما الامثولة فسيعطيها اولئك الأشخاص .

١

رزق فورولو أخاً في السنة التي فقد فيها خالتيه ، وقد كان يتمنى شيئاً من السعادة . وسمي الاخ دادار ، وأيقظ مجيئه حقد حليمة العاجز.

فقد فورولو لقب الابن الوحيد وأصبح الابن البكر ، وكان معنى هذا ، فيما شرحوا له ، أن عليه بعض الواجبات نحو المستقبل ، حين يشب الصغير ؛ وان له كثيراً من الامتيازات في الوقت الحاضر . وكبداية لذلك كان ينال حصته من كل المآكل الطيبة (البيض واللحم والكعك) التي كانت أمه تأكلها لتصح . أما فيما بعد فقد كان الصغير يحصل رمزياً على حصته من كل ما يوزع ، وكانوا يتظاهرون بأنهم يوزعون عليه حصته بينما كانت يدهم تنحاز نحو فورولو فيحصل على ضعف ما يُعطى الآخر . ولم يكن للأخوات ما يقلنه : فإن الاخ يستطيع ان يتنازل عما يأتيه لأخيه البكر . أما هنّ فلسن إلا بنات وا أسفاه .

هذه هي اذن اسرة منراد كاملة . سبعة اشخاص وفورولو واحد وعائل واحد هو الأب . انه يجهد كعفريت ، فلا يضيع اي يوم ، ولا يبيح لنفسه أو لسواه أي ترف ، ويرتجف لاقتراب العيد الذي يبدد المال ولاقتراب الشتاء الذي يبدد المؤونة . لقد كبر فورولو وأخوه وأخواته كما أتيح لهم ان يكبروا ، ولكنهم ، على كل حال ، أمضوا فترة

مطمئنة لا يحفظ عنها فورولو إلا ذكرى غامضة ، فهو لا يتذكر بدقة إلا اللحظات السيئة من طفولته .

كان في الحادية عشرة تقريباً حين مرض أبوه مرضاً شديداً نتيجة التعب المرهق . كان ذلك في نهاية موسم التين . وكان رمضان قد امضى الليالي جميعاً في الحقل يراقب المنشر . وصعد ذات صباح الى المنزل ، وعيناه غائرتان في محجريهما ، وجسمه ملتهب ، وشفتاه بيضاوان ، فقعد وهو يئن على سلة اوراق الدردار التي حملها بمشقة على ظهره ، وجيء له بسرعة بحصيرة وغطاء ومخدة مستديرة ومسطحة ، فاضجع ورفض أن يأكل شيئاً . كان يئن أنيناً مستمراً ، وظنت زوجه ان هذا أمر عابر ، وتساءلت الفتيات أيجب أن يبكين ، ولم يتأثر فورولو ما دام الأمر لا يعنيه ، بل ان اباه كان قوي الجسم ؛ فهو قادر على تحمل المرض .

قالت له الأم :

— ليس للبقرات ما تأكل هذه الليلة ، هل تعرف ذلك ؟ ألا تستطيع حقاً أن تملأ المخلاة هذا المساء ؟

— كلا فأنا مريض ، اذهبي الى الحقل مع اولادك ، وتسلقي شجرة الدردار الوسطى ، فهي ألطف الشجرات وأسهلهن أيضاً . كنت أود أن احتفظ بها للوجبة الأخيرة ، ولكن ما دام الأمر هكذا فامضي . لا تصعدي فورولو ، فان عليه أن يسقي البقرات . أريد أن أنام

فليلعب الأولاد في الخارج .

عادت الام مساء ، وراحت تزعجه :

– ألم تتحسن صحتك ؟ ربما استطعت إذا أنت استعنت بعصا ان تمضي فتحرس شجرات التين . يكفي ان يراك الناس تمر . ان وجودك يبعد السارقين .

– استدعي أخي ، فيحل محلي هذه الليلة . عجباً ! قولي له ان يأتي . ارسلي الصغير ليستدعيه . اعطني ماء لأشرب ايضاً .

– اتريد ان اضغط بيدي بعض الانحاء ؟

– كلا ! إن الألم لفي كل جسمي .

– هل لك في عنقود من العنب ؟ أم تفضل قليلًا من الكوسكوس مع اللبن . فهذا منعش !

لم يجبها رمضان . بل أغلق عينيه ولم يفتحهما إلا ليستقبل أخاه . ولاحظ لونيس هو أيضاً أن الأمر ليس بذي بال . سيذهب لينام في في الحقل ، إلا انه رحل في صباح اليوم التالي مبكراً لمدة اسبوع .

راح المريض يهذي في الليل . فقال أشياء غير مترابطة ، وخاطب أمه التي كانت متوفاة ، وضاق نفسه ، ووبخ اشخاصاً مجهولين غير مرئيين وزعم أنهم يهددونه . لم تنم الأم واستيقظ الأولاد . وكانوا خرساً يرتجفون .

قالت الأم :

– ذاك من فعل الجن ، وإن اباكم ليصارعهم منذ ساعة .

تضاءل حجم فورولو ، وتمنى ألا يلحظ الجن وجوده . لقد غلبوا أباه فما أقواهم !

في صباح اليوم الثاني ، استيقظ فورولو . رغم اعتياده ان ينام ملء أجفانه ، مع مطلع الفجر من غير مشقة ، ليرافق اخته الى الحقل . كان عليهما ان يخرجا التين من الكوخ ليجففاه ، ويجمعا غيره من تحت اشجار التين ، ويطعما الخراف ، ويعيدا سلة اوراق الدردار التي جمعها العم في ضوء القمر . وكان يعرف ان عليه ، عند عودته الى المنزل ، ان يسقي البقرات من الحوض ، كما عليه أن يعود بعد الظهر إلى الحقل كي يعيد التين الى الكوخ ، ويملأ الحقيبة لإطعام الحيوانات ويبحث بين العشب عن حطب جاف للموقد . وقدر أن أباه سيكون مسروراً منه .

رأى في المنزل شيخاً مسناً كان يكتب تميمة . كان ابوه مغفياً فأيقظه الشيخ ليسأله . وأجاب رمضان عن أسئلة الشيخ بتمعن ولكن ذلك لم يمنع السائل أن يجد في الكلمات معنى سرياً .

لقد أعلن الجن ، فيما رأى الشيخ ، انهم ازعجوا اثناء الليل ، الى جانب نبعة قرب المنشر فدخلوا جسمه لأنه لم يحترس ان يطردهم بذكره التعبير المألوف ، او شيء مثل « اذهب عني يا شيطان . » اذن فكل الخطأ متأت من المريض . والآن لا بد ، لطردهم ، من ذبح تيس ومسح اسفل معدة المريض بورقة من اللبلاب الوردي مكتوب عليها من

كلا صفحتيها . وستكرر هذه العملية الاخيرة ثلاث مرات ، وتجنباً للخلط بين الأوراق فستعلم كل من هذه الاوراق بخط او خطين او ثلاثة خطوط يحفرها المريض عليها .

يشعر فورولو بفزع مقدس من الجن وكان يتمنى ان يعاكسها لو امكنه ذلك . ولكنه يذكر جيداً ، في هذا الموضوع ، قصة صغيرة رواها لهم معلمهم وقد أراد أن يرضي جدته التي طلبت اليه ان يحضر لها تميمة ، فما كان منه إلا ان قدم لها ذات يوم ورقة صغيرة طويت طوياً دقيقاً وكان فيها قصيدة « الصرصور والنملة » كلها . ولكي يظهر لأخواته أنه له عقلاً ناقداً وانه لم يغر بالشيخ الذي ابتز منهم عشرة فرنكات ، فقد روى لهن قصة المعلم وأضاف ان تميمة « الصرصور والنملة » قد شفت العجوز بأفضل من تميمة حقيقية . ولكنه لكي يجهر بهذا النقد الجريء فقد كان عليه أن ينتظر ذهاب الشيخ ونوم الأب ، فقد يحدث ما لا تحمد عقباه . فمنذا الذي يستطيع ان يزعم ، حين تكون عينا الأب مفتوحتين ، ان الشياطين التي تتقمصه لا تحدق فيك او تطاردك وأنها تستطيع ان تغير مكان اقامتها فجأة لتأتي فتحل فيك. وفي مثل تلك الأوقات ، كان فورولو يتنحى حذراً رغم ما قاله معلمه !

ورغم ذلك فقد ذهبت مخاوفه سدى ، لأن الجن لم يشاؤوا أن يغادروا ضحيتهم ، ولم يفلح شيخ ثان وثالث بأكثر مما أفلح الشيخ الاول . وكان الأب يقول ، في فترات يقظته ، انه ما من شيء يحل

فيه البتة ، أما حين يعود الى هذيانه ، فقد كان من الصعب تصديقه .

عاد اخوه لونيس أخيراً من رحلته . ودهش أن رآه اكثر مرضاً مما كان . كان الامر جداً اذن . وبما أن المصيبة لا تأتي وحدها قط، فقد كُسر باب الكوخ في ليلة لم يجد فيها الناس أحداً يحرسه ، فتولى لونيس زمام البيت واتفق مع المالك على بيع البقرات التي لم يعد هناك من يستطيع أن يعتني بها . واستُفيد من المبلغ في معالجة المريض . إلا أن هذا المبلغ لم يعمر طويلًا . كان لا بد من السميد واللحم مرة واحدة في الاسبوع . فذبح تيس ثان ، كما ذبحت دجاجة بين الحين والآخر، واقترب العيد . وكان ينبغي أن يشتروا قمصاناً للأولاد ، وبيع الحمار وأحد الخرفان . وبكلمة موجزة ! فقد تهدم رمضان قبل ان يبلغ مرحلة النقاهة نفسها . وراح لونيس انقاذاً لأخيه ينفق من غير جدوى ولا حساب . فكان يحضر اللحم ، وكان الأطفال هم الذين يأكلونه ، وتغلى القهوة ولكن المريض لايشرب منها الا فنجاناً واحداً . وحينما قدر رمضان أخيراً ان يأكل ، لم يكن في المنزل مؤونة أو مال . فاضطر أن يستدين آنذاك بفائدة قدرها خمسون بالمائة لكي يستعيد قواه ويقيت أهله . كان ذلك في الشتاء ، وكان عليه أن يستمر في الاستدانة حتى الربيع .

حينما استرد قواه مع الأيام الجميلة استطاع ان يقيس بفزع عمق الهوة التي جره المرض اليها . كان البؤس يلاحقه . وذهب الى القاضي محزوناً،

للمرة الأولى منـــذ الانقسام ، ليوقع بابهامين في أسفل صك بالدين . ورهن حقله وبيته . كان ذلك اليوم يوم السوق ، اذا لم تخن فورولو ذاكرته ، وقد تغلب ابوه على حزنه فجلب معه مسبحة قديد ، غير انها بدت مرة للجميع .

وبعد فترة ما ، غادر رمضان قريته ليـذهب الى فرنسا فيشتغل هناك تاركاً اسرته في عناية أخيه . وكان هذا هو السبيل النهائي والأمل الاخير والحل الوحيد . فقد كان يدرك جيداً انه اذا بقي في البلد فسوف يصبح الدين كرة من الثلج ، وسرعان ما يحمل معه وكأنه الثلاجة ، ارث الاسرة المتواضع .

٢

في الليلة السابقة لرحيله ، لم يخامر الشك أحداً من أولاده بما انتوى ان يفعل . ولكن شاءت المصادفة أن يستيقظ فورولو أثناء الليل . لم يكن والده نائماً . كان يصلي في الظلمة . كان يصلي بصوت مرتفع طالباً الى العناية الالهية ان ترأف به وتكون في عونه ، وتبعد العقبات عن طريقه ، وألاّ تتخلى عنه ، ثم طلب اليها في اندفاع يائس ان تسهر على أولاده . كانت نبرة الصوت في ظلمة الليل مهيبة وعميقة . وكان يتلو كل سؤال اعتراف مؤثر . كان رمضان يصف ارتباكه وبؤسه . وخيّل الى فورلو ان حضوراً فائق الطبيعة يحوم فوقها ويستمع الى كل شيء . كان فورولو حائراً ، وكان يكفي ان يمد ذراعه ليلمس أباه ، لأنه كان يرقد دائماً بجانبه . ولكنه حبس أنفاسه فلم يتحرك . لقد قلص ألم أبيه حلقه ، وجعل الدموع تسيل على خديه بصمت .

لم يستطع ان يغمض جفنه طوال الصلاة . وحاول ان يكتشف ألم الاسرة الجديد . ولما لم يجد شيئاً ، قال في نفسه ، لعل جميع الآباء يصلون سراً على هذا النحو حين تتعرض اسرهم لكثير من الضيق . وكان هذا حال اسرة منراد ، وانه ليعرف ذلك حق المعرفة . فضمّ

آنذاك صلاته الى صلاة أبيه من أعماق قلبه ، ونام وهو لا يعلم كيف نام .

ولما استيقظ غداة اليوم الثاني آخر من استيقظ على عادته كل يوم ، وجد أمه واخواته وهن يبكين جميعاً . كان الأب قد رحل مع الفجر ، ولكيلا يضاعف حزنه فقد آثر ان يسافر خفية دون ان يقبّل أحداً ، وكان قد ارسل الى أحد اصدقائه سترته وبرنسه . سافر مرتدياً الرداء والبنطال الفرنسي اللذين كان أحد الاقرباء قد اعطاه إياهما ، وكانا قد رُتقا بمهارة في الاسبوع الفائت .

تذكر فورولوا ما سمعه اثنـــاء الليل . وقالت له امه وهي تبتسم ابتسامة باهتة انها هي ايضاً سمعت ذلك . واعترفت والرضى باد عليها انها سرت إذ علمت ان ابنها لم ينم . وخجلت الفتيـات قليلًا من سوء سلوكهن . ألم يكن يحببن اباهن إذن ما دمن لم يستيقظن ؟

وفكر فورولو وقال :

– كلا . فهذا يعني فقط ان والدتي لا تستطيع ان تعتمد عليهن ، ولكنها تستطيع ان تعتمد علي اثناء غياب ابي .

هذه الخاطرة منعته أن يبكي كأخواته ، فعزاهن قليلًا ، ومضى الى المدرسة . لم يكن ثمة الا شيء يتقلص في معدته بين الفينة والفينة ويخيل اليه أنه يأخذ بخناقه .

وصلت الرسالة الاولى بعد اثنين وعشرين يوماً فسلمها الأمين للأسرة لم يجرؤ أحد على على فتحها قبل الساعة الرابعة موعد عودة فورولو من

المدرسة . تناول هذا الرسالة من يد بابا وقبل غلافها . فأحاط الجميع به وجذبه أخوه الصغير من سترته وقال له : « أرني أبي بسرعة . » تردد فورولو . لقد كان في الحلقة الوسطى ، بيد أن أمر الرسالة صعب اذ يجب عليه أن يشرحها . وزيادة في الاطمئنان قرر أن يستدعي زميلًا قديماً كان قد ترك المدرسة وهو يحمل الشهادة الابتدائية ، لم يكن « العالم » بحاجة الى الحاح ، فجاء وفتح الرسالة بثقة وراح يترجم. وادرك فورولو بينما زميله يقرأ ويترجم انه كان باستطاعته أن يقوم بهذا العمل . كانت عيناه تبرقان فرحاً ولم يكن ثمة إلا تعبير واحد يستطيع أن يضايقه : « يجب الا تتضجر . »

الوالد « بصحة جيدة » و « يأمل » أن يكون أولاده كذلك . وهو يعمل ولن يتأخر عن أرسال شيء من المـــال . وهو يطلب إلى أولاده ان يكونوا هادئين ويطيعوا امهم . يجب ألا تؤخذ العنزة إلى حقل الزيتون حيث الشجيرات المطعمة : يجب الا ينسى تعليق الذكور على شجيرات التين في الوقت المناسب . كانت الرسالة مليئة بالتعليمات ، وكان الوالد يصدر أوامره كأنه معهم . يجب أن تورق شجرة الدردار هذه أولاً . وشجرة التين تلك يجب أن تسقى مع ظهور الحرارة ، ويحفظ علف المكان الفلاني للعنزة ، أما غيره فيباع . ويتلو ذلـك أسئلة شتى عن المؤونة المتروكة في المنزل ، والجيران والعم ، وتنتهي الرسالة بتحية لأفراد الاسرة كل باسمه ، و « تحية الكاتب » الذي أملى عليه رمضان الرسالة.

كان الجميع مسرورين ورأت الأسرة الوالد من خلال الورقة وهي مجتمعة حول التلميذين . وأجيب عن الرسالة فوراً ، فعندهم كل مايلزم لذلك . قرفص حامل الشهادة أمام نظرات فورولو اليقظة ، ووضع ورقة جديدة على كتاب قديم وغمس الريشة في المحبرة التي يمسكها فورولو .

لم يكن فورلو يجرؤ على كتابة الرسالة الأولى ، فهو يعرف ان هناك بعض التعابير المستعملة ولم يكن يعرف هذه التعابير . لقد آلى على نفسه أن يتعلمها فوراً وألا يلجأ الى أي انسان ليساعده في مراسلاته . فتعلم اذن طريقة انهاء الرسالة « بألف تحية » « ابنك المخلص » و « الجواب سريعاً » . ولم يسمح له حسده أن يشكر رفيقه بحماسة ، ولا سيما وانه نبهه بصراحة الى خطيئتين املائيتين وقعتا فيما كتب . وفي صباح اليوم الثاني حمل الرسالة الى المدرسة حيث ستسلم منها إلى الساعي ، ودهش المعلم اذ لم يتعرف في الرسالة على خط تلميذه وقال له إنه كان يظنه قادراً على الكتابة لأبيه . ولكن فورولو قدم بعد خمسة عشر يوماً رسالة ثانية الى المعلم وقد برز على غلافها عنوان الأب وكأنه عينة من من أجمل ما كتب فورولو « رمضان منزاد ٢٣ شارع غوت دور باريس ١٨ » .

فألقى المعلم نظرة عليه وفهم ان فورولو ينتظر كلمة ما تقال له :

ـ هذا حسن .

ومضى فورولو .

تبدأ الرسالة الثالثة الـــتي كتبها فورولو الى ابيه على النحو التالي « اكتب اليك بفرح لانبئك بأنني قُبلت في عداد الذين سيتقدمون لامتحان الشهادة الابتدائية .. .. » هذا التعبير الذي تعلمه الفتى في المدرسة أثناء دروس الانشاء ـ « افرض انك قبلت في الفحص ، انقل هذا الخبر الى احد اصدقائك . » ـ بدا له جميلًا في ذاته وجديراً بأن يقرأ في باريس . ولما كان هذا يعبر عن الحقيقة فقد بدا له اكثر جمالاً واجدر بريشة حامل شهادة جديدة أن تسطره ، وكان فخوراً بالأثر الذي سيتركه في « كاتب » أبيه .

نجح في الشهادة الابتدائية هو ورفيقان له . كان الامتحان قد جرى في (فور ناثيونال) على بعد حوالي عشرين كيلو مترا من القرية ، في مدينة حقيقية ، فيها كثير من الفرنسيين والمباني الكبيرة والشوارع والمحلات الجميلة والسيارات التي تجري وحدها . كلا لم تكن هذه (تيزي) ، لقد بدا له كل شيء جميلًا نظيفاً واسعاً . ثم فكر ان الناس يقولون عنها انها قرية صغيرة ! لقد اتيح له الوقت كي يزور المدينة لأنه ذهب اليها ليلة الامتحان ، ودهش وسرّ إذ لاحظ انه يعرف الفرنسية وتعجب من سماعه الاولاد يتحدثون بالفرنسية مثله ولكن بنبرة اعـــذب من نبرته .

ما يزال الى اليوم يسمع نداء الطلاب : هوذا المفتش والفاحصون

وعدد كبير من المعلمين الحقيقيين . انه في الصف أمام موضوع انشاء ومسائل حسابية . انه يحصر ذهنه ويبذل قصارى جهده . فينجح ويجتاز الامتحان الشفهي ، أين خجله المألوف ؟ انه يجيب ، فلا يخاف ، لقد تغير ، وان استاذه قد لايعرفه .

عاد هو ورفيقاه في الليل الى القرية متعبين . واستيقظوا في الصباح الباكر ليعلنوا النبأ الى المعلمين والتلاميذ ، فهنأوهم . لقد كان فورولو يسبح في الفرح والزهو ، ويجب ألا يجهل أبوه ذلك .

وتلقى الجواب المنتظر مع مبلغ مئتي فرنك . كانت الرسالة والمبلغ قد سلما الى صديق عائد من فرنسا وكان يسكن في الحي الذي يسكنه الأب نفسه . ولما وصل الصديق الى القرية ذهبوا الى منزله يستفسرون منه . فقبّل فورولو « عن أبيه » واعطى المال الأم . ثم اخرج من حقيبته مصور دار للأحذية ورواية غرامية « سلسلة غولواز » ملفوفة بخيط .

— اذن ! يبدو انك معلّم ! اذن اليك هذه الكتب التي ارسلها لك ابوك . أنه كما تعلم مسرور جداً .

وتناول فورولو الصرة .

٣

في شهر تشرين الاول التالي ، قرر فورولو ، بدلاً من ان يترك المدرسة ، ان يعود اليها ، ليستعد لمسابقة المنح المجانية . كان يعرف في أعماق نفسه انه سيكون اكثر فائدة للمنزل لو أنه صار راعياً ، ولكن رفيقيه في الشهادة الابتدائية لم يتركا المدرسة ، ولم يكن يسعه إلا ان يقتدي بهما . هذا ولم يبق من الحيوانات غير العنزة وولدها ، وهذه العنزة لم تكن بحاجة إلى حارس بها ، فقد أُلحقت بقطيع القرية ، وهو يستطيع ان يتغيب نصف يوم مرة كل ثلاثين او اربعين يوماً لكي يرعى (المشمل) الحيوانات المعتادة على ذلك في هذا القطيع . ومن ثمّ يستريح باله ريثما يعود فيحين دوره . اما إطعام العنزة في المنزل فليس بالأمر الصعب : سلة صغيرة من ورق الدردار في الصيف وكمية من العشب في الربيع وحزمة من أغصان الزيتون او السنديان في الشتاء ، وباقة من الكلأ إذا وجد ؛ أما إذا لم يحصل فورولو وأخوه بعد هذا كله على الكوسكوس بالحليب حين يشاءان فمعنى ذلك ان العنزة ناكرة للجميل .

مما لا شك فيه ان الرعاة ينصرفون الى مهام اخرى غير حراسة حيواناتهم : فهم يحرسون الأملاك ويقطعون الخشب ، ويجمعون الزيتون

او التين بحسب الفصول . ولكن لم توجد اختا فورولو عبثاً . فهو يستطيع ان يذهب الى المدرسة دون ان يزعج أحداً . ان امه واخواته سيقمن باعمال الحقل ، وان اباه يرسل على نحو يكاد يكون منتظماً مائة وخمسين فرنكا او مائتين ، المبلغ الضروري لشراء الشعير ، وعمه لونيس يحضر من السوق ما يحتاجون إليه .

لم يكن الفتى يحسد الذين تركوا المدرسة إلا في موسم الزيتون ذلك بان آلاف السمانيات والزرازير تحط على شجيرات الزيتون . وبينما يتسارع الرجال لهز الثمار والنساء لالتقاطها والحمير لنقلها ، فإن الرعاة يستسلمون الى الصيد بشغف ، وتحتل الفخاخ مسافات شاسعة من الارض . فيضع كل منهم مائتي فخ او ثلاث مائة او خمس مائة ، ويمضي الصبية صباحاً ، في برد مثلج ، ليغيروا الطعم — وهو عبارة عن زيتونات جميلة لامعة — ثم يجتمعون زمراً تحت اشجار الزيتون الكبيرة فوق هضبة مجاورة حيث يستطيعون مراقبة الفخاخ . ويشعلون النار ليدفئوا بها اصابعهم وأرجلهم وينتظرون بحمية الفترة التي سيقومون فيها بدورتهم .

لقد عرف فورولو هو الآخر في ايام العطل ، مثل هذه الانتظارات الخفاقة المليئة بالأمل ، وإن الأولاد ليفقدون شهيتهم ، ولا يشعرون آنذاك بالبرد أو المطر أو الاشواك ، لأنهم حينما يرون زرزوراً يستند إلى العصا المرنة المغروسة في الأرض والمشدودة على الخيط ، يسلون تعبهم فتذبح الطيور وينتف ريشها ، وتملأ منها القلنسوات ، غير ان طيور الزيارة الاخيرة عند المساء

تحمل وهي حية ، واذا ما صادف أن خرج الأولاد من المدرسة فإن الرعاة يأتون الى باب المدرسة لملاقاتهم كي يثيروا الحسد في نفوسهم على حظهم هذا .

ولقد حاول فورولو غير مرة أن ينصب فخاخاً في حقله ، ولكنها كانت تسرق وهو في المدرسة . ويبلغ غضبه ذروته حين يلاحظ اختفاء الفخ والسماني المأسور ، فيثأر لنفسه بأن يتمنى من كل قلبه رحيل هذه الطيور « المهاجرة » — وهو يشرح للجميع هذه الكلمة برفق — وينتظر بفارغ الصبر شهر آذار الذي يضع حداً للصيد ولموسم الزيتون .

لم يبق أمام فورولو ، بعد أن ضحى بهذه المسرات في سبيل دراسته ، إلا أن ينجح في المسابقة . ولقد نجح نجاحاً باهراً . ان موضوع الانشاء كان ملائماً له كل الملاءمة : « تخيل ان لك اباً أمياً يعمل في فرنسا . صف حديثه عن الصعوبات التي يلاقيها من لا يعرف القراءة والكتابة وعن أسفه لأنه لم يتعلم ، وعن فائدة العلم . »

كان أبوه في مثل هذا الوضع تماماً . وهو يستطيع أن يتخيل ارتباكه حين يشتري اشياءه ، وحين يبحث عن عمل ، وحين يصدر اليه رئيس العمال احد الأوامر . كان يستطيع ان يتخيله ضائعاً في المترو أو في الشارع . واعترف بأن أباه كان عاجزاً عن حفظ أسرار الأسرة ما دام يملي على الآخرين رسائله . وبكلمة موجزة فإن الافكار لم تكن تعوزه ، فكتب موضوعاً جيداً . أما عن مسائل الحساب فقد

كان الجميع يثقون به . فقد كان الحساب مادته المفضلة . ولمع في الفحص الشفهي وعاد الى البيت واثقاً بنجاحه .

وشرع يفكر في جملة جميلة يزف بها نجاحه إلى أبيه . ولكنه لم يكتبها هذه المرة لأن فرحه كان قصير الأمد . كان عمر ، أحد شباب القرية ، قد عاد من باريس وحمل معه أنباء سيئة . التقى هذا بفورولو قرب المقهى ، ولمّا قبل الغلام يده مهنئاً بسلامة الوصول ابتأس عمر وقال له :

— لقد أتيت تسألني هل رأيت أباك ؟ نعم لا تقلق فقد رأيته . امض واحضر امك فأنا مكلف بمهمة اكم .

— هل أعطاك رسالة ؟ سلمني اياها !

— انها في جيبي ، فلتأت أولاً . اسرع .

ووصل الأم بسرعة عظيمة .

قال الرجل :

— نانا فاطمة ، إن أولادك لمحظوظون ، قدمي قرباناً جديداً لقبة القرية فقد أوشك زوجك أن يموت . أما الآن فقد نجا ، فلا تخافي البتة .

وشحب وجه المرأة وابنها .

— ماذا جرى له ؟ أهذه هي الحقيقة ؟ اذا كان ميتاً أو في خطر فلا فائدة من كتم ذلك فأنا شجاعة . لقد مر شهران من غير أن يكتب لنا فيهما .

ـ كلا ! قلت لك انه تعافى ، لقد جرحته عجلة في المعمل ، فادخل المستشفى ، ، وسيعود عما قريب إلى عمله ، وإليك هذه الفرنكات المئتين التي أرسلها لك .

ـ أما يزال في المستشفى ؟

ـ لقد كان على أهبة الخروج منه في الاسبوع الماضي .

ـ والمال ؟ هل كان معه !

ـ اوه ! لقد طلب إلي أن اسلمكم المئتي فرنك . وها هي ذي وأستطيع ان اعطيكم المزيد إذا أردتم . هذه هي الرسالة يا فورولو . انه يطلب اليكم فيها أن تعيشوا بسلام مع جميع الجيران . نعم ، لاتقلقوا عليه . لقد تألم ولكنه سيشفى . ان الله لم يشأ أن يحرم أولادك أباهم .

عادت الام وابنها الى البيت حزينين . وحين عادت الأخوات من الحقل تحلق الجميع حول الكانون . كان الغم يقرأ على الوجوه كلها . وكانت فاطمة تمسح عينيها بين الحين والآخر بطرف فوطتها . بكى الجميع بصمت ذلك بأنه يجب إخفاء هذا المصاب عن الجيران .

عاد العم لونيس مساء . وكان قد علم الخبر بمزيد من التفاصيل ، فأراد أن يطمئن الأولاد . ولكنه لم يستطع أن يطمئن حتى نفسه . أكان الأمر أخطر مما قال عمر ؟ لعله أخفى شيئاً ما . ورجت الأم لونيس أن يقول مايعرف . وأقسم لونيس ان حال اخيه لاتقلقه .

وأراد أن يأخذ الولدين ليتعشيا عنده ، ولما رفضت فاطمة ذلك خرج مستاءً . كان كل امرىء مكتئباً غضبان . كان اليأس يأخذ بخناق جميع الحناجر . لم يكن في الرسالة شيء حسن . عبارة عن تعليمات موجزة : « ... أرسل لكم مئتي فرنك . حاولوا ألا تنفد بسرعة فلن ارسل شيئاً حتى بضعة شهور . واذا ما احتجتم الى المال فبيعوا العنزة واحدى الشجرات . »

في اليوم الثاني قال المعلم في الصف ، وهو يشرح خلاصة درس الاخلاق ، شيئاً من هذا القبيل : « الطفولة ، هي العمر السعيد ! فأنتم معشر الطلاب ، لاهم لكم إلا أن تتعلموا أو تلعبوا . انتم تنامون ملء أجفانكم ولا تفكرون في شيء . أما أبوكم فقد يقضي ليلة كاملة أحياناً لايغمض له فيه جفن ، تؤلمه شتى الصعوبات ، فهو يفكر بأبنائه وبالدائنين الذين يزعجونه ، وبالحوابي الفارغة . انتم لا تبالون بشيء ، ولا تشعرون بما يشعر به من آلام » . وبينما كان المعلم يتكلم ، فكر فورولو في نفسه قال : هذا خطأ ! هذا خطأ ! كان يشعر برغبته في أن يقول ذلك للمعلم . كلا ! إن الأولاد لأكثر حساسية من ذلك فهم يقاسمون أهلهم البؤس .

وبعد قليل ، سرت الاخبار الغريبة حول رمضان ، وكانت تغمر الاسرة المسكينة في الشقاء : فقد اشيع انهم بتروا له ساقه وربما ساقيه . وزعم بعضهم أنه أصبح أعمى ، وقال غيرهم اخيراً انه مات . فذهب

لونيس الى تيسي ـ اوزو وارسل برقية ودفع اجرة الجواب الى صاحب البيت الذي يسكن فيه أخوه . فعادت البرقية وتلتها رسالة بعد فترة قصيرة . ان فرنسياً لا يستطيع ان يكذب ، وانتهى بهم الأمر الى شيء من الاطمئنان .

٤

كان قد انقضى على الأب سنة ونصف السنة وهو في فرنسا . وفي إحدى امسيات شهر إيلول عاد فورولو مع أخيه الصغير من الحقول وهما يسوقان قطيع الماعز الذي كانا قد رعياه . فالتقى الولدان ، قرب ، القرية ، بابن عمهما الكبير حسين الذي كان ذاهباً ليسقي حماره . فانحنى حسين على دادار وقرص خده ثم قال له :

ـ اسرع إلى البيت ، واسبق اخاك ، فإن اباك قد وصل .

انتصب الفتيان في منتصف الدرب فاغرين فمهما من الدهشة ، لا يجرؤان على ان يتحركا او يتكلما ، بينما مضى حسين باطمئنان وهو يبتسم . فقفز فورولو كمن يستيقظ من حلم واندفع في خط مستقيم تاركاً القطيع ، ناسياً اخاه الذي راح يبذل مجهوداً شاقاً كي يتبع أخاه .

كان الأب رمضان في المنزل ، يحيط به الجيران والجارات بينما كانت فاطمة ، تقف على القبة لتستقبل الزائرين ، والبشر يطفح من وجهها . وشق الولدان طريقاً لهما حتى انتهيا الى أبيهما الذي قبلهما وهو يضحك ضحكته العريضة .

قالت له احدى العجائز :

— ان فورولو ، حفظه الله لك ، قد أصبح الآن رجلًا .

— سلمك الله ! نعم لقد كبر ، وذلك في الوقت المناسب ، فقد تهدمت أنا .

— انت ؟ إنك لأشد صلابة من ذي قبل .

وبالفعل فقد تغير رمضان : إذ سمن ، واصبح وجهه ويداه بيضاً تقريباً ، كان لونه جميلًا ، حتى ليقول المرء بأنه لم يكن مريضاً .

قالت فاطمة :

— ومع ذلك فإنه يأكل جيداً حتى هنا . انتن تعلمن جميعاً اننا والحمد لله لسنا محرومين شيئاً .

فأجابوها :

— لا سبيل الى موازنة بيننا وبين فرنسا .

كان فورولو يستعجل ذهاب هذا الجمع كي يخلو وحده الى أبيه . كان قد رقد في احد اركان البيت كيس كبير وحقيبة سحرية ، وكان لا يملك ان يحول نظره عن هذه الناحية . اما دادار فقد جلس ، بكل كلفة ، فوق الكيس وانقض بأسنانه وأظافره على الرباط الذي يوثق المحفظة . وأرادت زازو أن تمنعه من القيام بهذا حسداً منها ، فنتجت عن ذلك مشادة لفتت انتباه الكبار فترة ما .

واضطر رمضان خلال ذلك الوقت الى ان يتلقى اسئلة ممن كان لهم أقارب في باريس جميعاً . وكان يجيب الجميع بكل سرور ، ويسلم بعضاً منهم الامانات التي حملوه اياها . وكان العم لونيس آخر من خرج

من الجمع بين فرحة الأولاد العظيمة . وفي الحق أن فورولو قد اهتم بحديث الأخوين لأنه كان يدور حول الحادث والآلام المبرحة في المستشفى . ولكنه كان يعلم ان عنده متسعاً من الوقت كي يحمل اباه على اعادة القصة . أما ما كان يهمه في تلك اللحظة ، فهو غطاء الحقائب وكان متلهفاً على ان يسر الى أبيه انباء نجاحه في المدرسة .

أخرج من الكيس ثياب وحوالي عشرة أرغفة ، كانت الحقيبة محشوة كذلك . وقسم الخبز أجزاء ووزع على الجيران . كان فورولو وأخته تيتي يقومان بالتوزيع فيذهبان الى هذا البيت والى ذاك . وأعطي العم رغيفين كاملين . وفي تلك الليلة نفسها وزع رمضان الثياب على أولاده قبل أن ينام وتزمل هؤلاء بها في الحال كأنهم في كرنفال حقيقي.

وراح يسخر بعضهم من بعض ، ويضحكون ويغضبون ويقبل بعضهم بعضاً . وأخيراً نام دادار بالحذاء الذي ألبسوه اياه ، وبسترة حمراء ملتمعة وقبعة كانت تغطي اذنيه . واختفت زازو في سترة خصصت للأم ، وقد برز رأسها وحده ، وعلى هذا الرأس كان شال من الحرير الأصغر تتدلى منه الشراشب على عينيها . وصفّ فورولو بعناية ، عناية رجل مرتب ، صرته فوق وسادته مانعاً أي انسان من لمسها . وشدت بايا وتيتي ، وهما اكبر الأولاد ، على نصيبها بين فخذيها متظاهرتين بأنها تصغيان الى أهلها بانتباه .

روى رمضان بدقة للمرة الثانية كيف جرى له الحادث ؛ ورغبة

منه في إفادة أولاده ولاسيما فورولو فقد سحب محفظته وأخرج منها مجموعة من الأوراق .

ـ خذ واقرأ هذا ان كنت متعلماً حقاً . انظر أين مر ابوك وما عانى من ألم .

نظر فورولو الى المستندات ولكنه لم يفهم منها شيئاً . كانت كلمة « مستشفى لاريبوازيير » التي ظهرت في أعلى الصفحة مقروءة ، مع خاتم بنفسجي . اما قراءة الباقي وهو مخطوط فقد كان ينبغي ان يقوم بها الطبيب نفسه . كانت تلك عبارة عن شهادات صحية : واعادها فورولو الى ابيه بعد ان امعن النظر في كل ورقة وهو يهز رأسه بخطورة لكي يحمل اباه على الاعتقاد بأنه فهم شيئاً .

ـ هل رأيت ؟

ـ نعم .

ـ حسن !

ثم أضاف الأب وهو يفك ازرار قميصه :

ـ انظر الآن الى الجرح ، لقد شقوا معدتي كلها .

وفتح الأولاد عيونهم من الدهشة . لكنه طمأنهم بقوله :

ـ أوه ! لا بأس في ذلك ، فقد خيطوها بعد ذلك ، ولم يبق إلا اثر طويل .

اقترب الأولاد من ابيهم ، ورأوا فعلاً ، اثراً يمر بمعدته بطولها ،

ويقطع الصرة ، فلمسوه بلطف خوفاً من أن ينكفأ . لم يكن ثمة من خطر : فقد خيط خياطة محكمة .

ثم تناول رمضان من الحقيبة ملفاً طويلًا من الورق يحوي عـدداً من الورقات على هيئة دفتر .

كانت الكتابة فيه كبيرة وجميلة : وفي هذه المرة استطاع فورولو ان يقرأ ويترجم على نحو لا بأس به ؛ ولاحظ الأب جيداً ان ابنه كان مثقفاً . كانت الورقات تشتمل على حكم من محكمة السين المدنية ، ونتيجة لهذا الحكم فقد فرض على مؤسسة التـأمين ان تدفع الى السيد منراد رمضان مبلغ اربعة وسبعين فرنكاً كل ثلاثة أشهر مدى الحياة .

قال رمضان لابنه :

— أنت ترى ان اباك لا يستسلم . لقد خسرت الدعوى في محكمة الصلح ، ولكنني استأنفتها وربحتها .

ولكن لماذا التجأ الى محكمة الصلح ؟ كان منراد يعمل في مستنقعات أوبرفيليه عملًا مستمراً كما يعمل في حقله في بلد القبيلة . وكان يعمل ، عدا الساعات الإضافية ، كل ايام الأسبوع حتى أيام الآحـاد . وفي يوم من ايام الآحاد رمت به الى الحائط إحدى العجلات المدفوعة على خط حديدي ، فنقل الى ردهة الشركة بالمستشفى ، وخيل اليه بعـد اسبوع انه شفي ، إذ لم يكن فيه اي جرح خارجي ، ولكنه كان يشعر بآلام داخلية . ودفعه الطبيب الى مغادرة المستشفى وكان منراد

يرغب في العودة الى عمله ، فقد كان يستعجل كسب ما يستطيع به تسديد ديونه ليعود الى أولاده . فخرج اذن وعاد الى المعمل . وفي نهاية اليوم الأول بعد ان عاد الى غرفته ، عاودته الآلام على نحو أكثر حدة . فاعيد الى المستشفى في لاريبوازيير وهو بين الموت والحياة ، وكان لا بد من اجراء عملية جراحية له . وقضى ثلاثة أشهر ، ثلاثة اشهر لا آخر لها من العذاب والضيق بعيداً عن اولاده ووطنه .

حينما طالب الشركة بالتعويضات التي تدفعها عادة لطوارىء العمل ، رفضت الشركة ذلك ، فأقام عليها الدعوى ، كان ثمة نفوس خيرة أعانته ونصحت له وارشدته الى حيث يجب ان يتوجه . وبعد عدد من المغامرات التي لن ينساها ابداً . نال « التأمين » الذي يستحقه ، كما حصل على دخل دائم لم يطلبه ، ولم يأمل في الحصول عليه . ولو استطاع فورولو ان يتخيل هذه القصة في امتحان المسابقة ، لأضاف حتماً الى موضوعه مقطعا وصف فيه كل متاعب أبيه ، الأمر الذي سيدهش منه المصححون لا شك .

ولما كانت كل هذه الأشياء التي تحدث عنها رمضان قد غدت في حكم الماضي ، فان كل فرد أصبح يرى ، من ثم ، رأي فاطمة . ذلك بانها سرت سروراً كبيراً بالحادث الذي حمل الى الأسرة حوالي ثلاثة آلاف فرنك دفعة واحدة .

وهذه الآلاف الثلاثة من الفرنكات كانت ستتطلب من الأب

غياب سنة أخرى ، ووافق رمضان على ذلك . لقد عاد من فرنسا مخيط البطن ، ولكنه غني الى حد كاف بحيث يستطيع ان يفي ديونه ويستعيد طمأنينة الماضي . لقد كان في جيبه حوالى عشرة آلاف فرنك وكان مرتبه الصغير يضمن له سعوط التبغ حتى موته .

نصح له الطبيب بالاستراحة التامة مع التغذية الصحية الوافية خلال عام . إن الاطباء يجهلون ، لا شك ، ان ابن القبيلة ذو جلد قاس فلا يتلاءم ووصفاتهم الا حين يفقد القدرة على الخروج عن طاعتهم . كان رمضان نفسه يعرف ان صحته جيدة . كان الحقل بانتظاره ، واصدقاؤه وأعداؤه يرقبونه . سيظهر للجميع انه مايزال قوياً ، فلم يسترح إلا يومين اثنين .

. . .

كان ذلك في شهر تشرين الأول . راح فورولو الذي ترك المدرسة لتوه يصحب اباه الى الحقل ويشاركه اعماله . لقد ابتاعوا بقرات وخرافاً وحماراً . وكان لكل فرد في الأسرة عمل كبير يقوم به . وبدا ان الايام الخيرة شاءت ان تعود . كان رمضان سعيداً أن يجد في ابنه معيناً ثميناً له . فرأى ان يخاطبه فوراً كما يخاطب شاباً لا فتى وفي بعد ظهر احد الأيام كانا كلاهما فوق البيدر قرب الكوخ الذي يضم قضبان التين . وكان الأب منهمكاً في اصلاح بردعة الحمار التي قرضتها الجرذان اثناء غيابه الطويل . قال لابنه :

ـ أترى يا بني ، ان لنا زوجاً من البقر وحماراً وخرفاناً . وأستطيع ان أبتاع أيضاً خروفين آخرين . نحن اثنان وليس ذلك فوق طاقتنا . سنبيع البقرتين في الربيع لنشتري زوجاً اصغر منهما . وسنبيع ايضاً ثلاثة خرفان لنستطيع الحصول على بقرة . وسيكون لنا كذلك قليل من الزيت اكثر من حاجتنا . سأذهب في الصيف القادم ومعي الحمار ، لأبيع الخضار بينما تهتم انت بالحيوانات والأرض مع اخواتك . وعمّا قريب نستبدل بالحمار بغلاً فأنصرف عند ذاك الى التجارة . سترافقني بين الحين والآخر الى الاسواق لكي تطلع على الجو . اعتقد اننا ولله الحمد لن نكون بؤساء ابداً .

وكلما كان الأب يوسع مشاريعه كان فورولو يتابعه بدهشة . لقد رأى آفاقاً لم يفكر فيها تتفتح امامه . رأى نفسه يصبح فلاحاً ، ورأى الرخاء يلج بيتهم بفضله . ولكنه كان متشككاً بعض الشيء ، فقد كان له حلم آخر . ذلك بأنه طالما تخيل نفسه تلميذاً فقيراً ولكنه متفوق . وألف صورة التلميذ هذه وانتهى به الامر الى التعلق بها . وها هو ذا أبوه ينجح ، خلال دقائق معدودات ، وبمبررات متينة ، في طرد هذه الصورة كما يطرد الخيال . ومع ذلك فقد تمتم الفتى بتأثير ضميره قال :

ـ وماذا لو حصلت على منحة ؟ سيتاح لي ان أتابع دراستي دون ان أكلفكم اية نفقات ؛ لقد قال لي المعلم ذلك !

– لم تحصل على المنحة أولاً ، مادامت الامتحانات قد انتهت ولم يكتبوا اليك بشيء . ثم لو فرضنا أن المال وصل ، هل تعتقد أننا خلقنا للمدرسة ؟ نحن فقراء والدراسة وقف على الأغنياء . فهم يستطيعون أن يبيحوا لأنفسهم أن يهدروا عدة سنوات ، ثم يرسبون بعد ذلك لكي يعودوا فيتسكعوا في القرية . أليس هذا وضع ابن سعيد المرابي ؟ وهناك اثنان أو ثلاثة آخرون في (آغوني) ، لقد استعلمت عن ذلك . ان الامر صعب ، فالفرنسيون لايمنحون الأماكن عبثاً بينما تستطيع ان أنت بقيت هنا أن تربح ما أربح ولن يعوزنا شيء . وبعد سنتين أو ثلاث تصبح قوي الجسم بحيث تستطيع أن تذهب فتعمل في فرنسا . وسترى آنذاك أنك بشهادتيك ستتغلب على المصاعب أفضل منا . ولن تعرف البؤس الذي عرفته أنا . ان فرنسا بلد جميل جداً ، سترى كل شيء منها وتفهم كل شيء . وسنزوجك بعد عودتك . هذه هي الحياة التي أقترحها لك . وهي الوحيدة التي تلائمك . سيكبر أخوك فتعينه . وستتزوج أخواتك . ثم تحل محلي في كل شيء ، وأستطيع أن أموت مرتاحاً .

كان فورولو يصغي بصمت ويعجب بهذه الحكمة ، وحين تحدث أبوه عن الزواج خفض رأسه محمر الوجه من الخجل . كانت عينا رمضان على البردعة التي يخيطها . كان كلامه قد انتهى ، ولم يكن ثمة جواب مادام ينطق بالصواب . فصمتا لحظة ، وكل يفكر بأقواله

الحظيرة ، ثم عين رمضان لابنه عملًا يقوم به ، فنهض فورولو بلطف وابتعد .

حين عادا في المساء ، وجدا رسالة من مدير مدرسة تيسي اوزو تنبيء بأن المنحة قد أعطيت له ، وأن مكانا قد حجز للطالب الجديد الذي كان عليه أن يذهب بلا تأخر . هكذا يجب القدر أن يمتحن الناس .

دهش الفتى وهو الذي أوشك أن ييأس . كانت صورة الطالب الفقير تعود إلى ذهنه بكل مافيها من إغراء ، انها اكثر تشويقاً الآن اذ أمكن ان تصبح حقيقة ، وقد بدأ الأب نفسه يؤمن بها . هل هناك إنسان احمق يتخلى للدولة عن ١٨٠ فرنكا كانت على استعداد لأن تدفعها لابنه شهرياً ؟ كلا ! أليس كذلك ؟

لم يشأ هو ولا فورولو ان يعودا الى ما لاقاه في الحقل ، فنسياه باتفاق مشترك ، ولم يتحدثا إلا عن المنحة والمدرسة والدروس وغدا فورولو بطل السهرة . فأخواته نظرن إليه باحترام . وأعدت فاطمة عشاء على شرفه ، بينما كان هو وأبوه يتحدثان ، في ناحية ، عن اشياء رصينة . ووجب ان يُعدوا أمر الرحيل . ليس هناك امر سهل . ولكن كان في البيت مال ، وبالمال كما قال رمضان بحكمة ، يستطيع المرء أن يحل جميع المشكلات .

كان رمضان على حق ، فمنذ صباح اليوم التالي شرعوا جدياً بالعمل .

فمضوا لمقابلة المدير كي يحصلوا على المعلومات ، ويتسجلوا ، وارسلوا يشترون الاشياء الضرورية من (الجزائر) . وانفقوا كثيراً من المال واستطاع التلميذ الجديد بعد ان حصل تقريباً على كل ما يحتاج إليه ان يدخل المدرسة بعد عطلة عيد جميع القديسين .

لم يكن الأب منراد ممن يُخدعون . كان يعرف جيداً ان ابنه لن يصل الى نتيجة ولكن فورولو سيتغذى في المدينة بافضل مما يتغذى في منزله . وسيكبر بعيداً عن حياة المراهقين القاسية في قريته .

وما دامت الدولة قد أرادت ان تساعده على تنشئة ابنه فإن رمضان لا يعترض على ذلك ، فالذي يهم ان يصبح ابنه رجلًا بسرعة ، كي يشاركه في الإنفاق على إطعام الأسرة .

أما فورولو فلم يكن يرى في ذلك أي ضير . لقد كان صادقاً في نيته . فهو يذهب الى المدرسة سليم الطوية ، على أمل ان يحصل على شهادة الكفاءة ، فيدخل من ثم دار المعلمين ويصبح معلماً .

- ٥ -

حين رحل فورولو ترك اسرته مكتئبة لرحيله . كان الجميع يأسفون له . وبـــدا المنزل نفسه اشد كآبة . وعندما كانوا يجتمعون مساء ليتعشوا كان كل منهم يلحظ الفراغ . كانوا يشعرون ان الأسرة اصبحت اصغر بكثير مما كانت عليه بالأمس ، كأن الفتى كان يعادل وحده أربعة اشخاص او خمسة . ثم كانوا يتحدثون عنه ، عنه وحده . فكانت الفتيات يتذكرن الأخطاء التي ارتكبنها نحو رجل المستقبل ، ويأسفن انهن لم يتحملنه في كثير من المناسبات ، ويعدن بأن يحببنه حباً عميقاً . وكانت الأم تود ان ترسل له كل لقم الكوسكوس التي تأكلها . ويشغل ذهنها الطريقة التي سيهيء بها فراشه تلك الليلة كانت قلقة لأنه سينام وحده بعد الآن ، فليس هناك من يسهر عليه اثناء نومه . كانت تكتئب إذ تفكر بأنه اضحى بعيداً عن عنايتها وحدبها . حاول الأب عبثاً ان يطمئنها كانت الدموع في عيني فاطمة ، وسعلت ثلاث مرات أو اربع كي تتشجع .

ومع ذلك فقد كان فورولو مطمئناً ، في حال حسنة . فها هوذا ينام لأول مرة في حياته في سرير حقيقي ، بعد ان اكل اشياء لم تكن امه ولا أخواته ليتخيلنها ، كان بعيداً عن ان يفكر باسرته . كانت

هذه الايام الثلاثة الاخيرة مليئة بالاحداث الهامة ، لقد عاشها وكأنه في حلم ، وقبل ان ينام شعر بحاجة الى أن يستعيدها في ادق تفاصيلها كي يتأكد ان ليس ثمة من خطأ وان سعادته حقيقية .

السبت مساء : فورولو في الدار لقد تلقى منذ فترة رزمة ثيابه القليلة . كان المدير يفكر بتسجيله طالباً داخلياً ، ولكن الأب رفض ذلك لأنه لا يملك المال الكافي . فسجل خارجياً ولكنه لم يجد غرفة يستأجرها . اما عن الطعام فهناك المطعم الحقير . عاد الأب الى المنزل متردداً ، ربما وجب ان يقبل مؤقتاً أن ينام في الفندق . ثمة نفقات كبيرة أمامه . كان رمضان متضايقاً . هل يتخلى عن ابنه في المدينة؟ هل يعود الى الاقتراض كي يتاح لابنه أن يكون طالباً داخلياً ؟ لقد ألحّ المدير على ذلك كثيراً .

الاحد صباحاً : ان العناية الالهية لا تتخلى قط عن المساكين . لقد تجلت لفورولو في وجه (عزير) المحبوب . ان عزير صبي من (اغوني) في مثل سنه ، وهو تلميذ في المدرسة ، سمع بفورولو وبمنحته فجاء يراه في تيزي ، واوحى له الاتصال به بالثقة فوراً . انه اشقر ذو عينين زرقاوين ، وفمه يبتسم باستمرار بابتسامة من تلك التي تجتذب الصداقة . كان ذا موهبة في تذليل اكثر الاشياء تعقيداً .

قال هذا لفورولو :

ـ أنا طالب خارجي ايضاً ، ولي منحة مثلك ؛ ونحن من بلد واحد ،

واني لاستعجل الخلاص من وحدتي . فاذا أردت عشنا معاً واصبحنا صديقين.

ودّ فورولو لو يقبله . كان يجابه الصعوبات ، ولم يكن المرء بحاجة الى ان يعارضه أو يقاطعه او يلقي عليه اسئلة .

ـ ليس أبي من الغنى بحيث يدفع عني نفقات القسم الداخلي . هناك في تيسي اوزو ارسالية بروتستنتية تؤوي التلاميذ الوافدين من الجبل ، واني ساكن عندهم ، ويبلغ عددنا ثلاثين تلميذاً . لقد حدثتهم عنك . سيكون لنا غرفة ومصباح كهربائي وطاولة وكراسي وسريران . وهم يقدمون لنا القهوة والخبز في الصباح . ولا ندفع شيئاً مقابل كل ذلك. ان الارسالية تقوم على بعد خطوتين من المدرسة .

كان ذلك ، في الحق ، امراً لا يصدق . وفسر له عزيز ان عضو الارسالية هو رجل خير ، خُلق ليساعد الفقراء وهو يشبه « الآباء البيض» بعض الشبه . وبالاضافة الى كل الخدمات التي يؤديها للمساكين سكان الجبال ، فقد كان يجمعهم كل مساء في صالة كبيرة ليحدثهم عن الدين وينصحهم ويعلمهم . كان ذلك امراً شائقاً ، وسر فورولو بذلك سروراً عظيماً ، وتقبله فوراً ، ثم تلقى بعض تعليمات ذات طابع عملي (حمل الأغراض ، المال ، الكتب) فلم يعرها كبير التفات . وكان موعد الالتقاء صباح اليوم الثاني . فترك زميله آسفاً على تركه ليمضي هو فينهي استعداداته ويطمئن أباه بأن يزف اليه هذه البشرى السارة . ووجد رمضان أيضاً صعوبة في تصديق مارواه له ابنه . كانت تلك معجزة !

وها ان الله قد جاء لمعونتها !

الاثنين صباحاً : ذهاب سريع بغية الوصول قبل الساعة الثامنة ، السيارة « للمرة الأولى ! » ترى أحلم الفتى بذلك ام لا ؟ دخول الى المدرسة قبل مقابلة السيد (لمبير) عضو الارسالية نفسه .

وجد فورولو نفسه تائهاً بين جمهور من التلاميذ . ولم يتعرف نفسه ، فقد كان يرتدي الزي الاوروبي كالآخرين . عقد له عزير قبل الدخول ربطة عنقه بعناية العارف . لم يعره أحد انتباهاً فمشى في ظل عزير ، يحمر وجهه في كل لحظة من غير ماسبب ، وهو يخشى ان يفتح فمه . ثمة طلاب يصافحونه لأنهم صافحوا صديقه . كان يلقي التحية هو الآخر إذ يمر أمام الاساتذة غير المبالين . دخل الصف وفتح كالآخرين دفتراً تناوله مصادفة من حقيبته وراح يتابع الدرس على نحو آلي ، ويحاكي كل الحركات . لحسن حظه أنهم لم يشعروا بوجوده . لم يكن قلقاً . دام العذاب ساعة وشعر بالاختناق ، ثم قال في نفسه انه لم يكن في موضعه . كفى ايها الراعي السابق ! أكان من أجله هذا الصف الكبير بمربعاته الزجاجية الواسعة وطاولاته الجديدة اللمّاعة وكل تلك النظافة التي يخشى المرء أن يمسها حتى من بعيد ! أكانت من أجله تلك السيدة الجميلة التي تتكلم وتشرح وتسأل بأدب وتقول « انتم » لكل فرد ؟ وأخيراً أكانت له هيئة أحد رفقاء هؤلاء الصبيان الذين يرتدون ثياباً جميلة والمنشئين تنشئة حسنة ، والذين تبدو عليهم علائم

الذكاء ؟ وخيل اليه انه دخيل في هذا المجتمع الجديد الذي يدهشه . كان عزير الجالس غير بعيد عنه يلتفت بين الفينة والاخرى ليشجعه بابتسامة . وكان قلبه يفيض عرفاناً بالجميل . في الفرصة بدأ فورولو يطمئن . فمن عاده التلاميذ ان يكونوا لطفاء عادة في اليوم الاول . واذا كان تلاميذ الصفوف الاخرى لم يشعروا بوجوده ، فإن رفقاءه الجدد على خلاف ذلك — أو بعضاً منهم على الأقل — تلطفوا في اثارة انتباهه ؛ فواحد يمزح كي يضحكه ، وآخر يشرح بحماس نظرية كان الجميع قد فهموها كما فهمها هو ، وثالث ينشر على نحو مضحك لعنات « كميل »[1] . كان منراد على استعداد لأن يعجب بكل من يطلب اعجابه . كان يعجب بالناس جميعاً . فقد رأى نفسه مجهولاً جداً منسحقاً يستحق الشفقة !

في الساعة الحادية عشرة تناول حساء الغداء مع صديقه في المطعم الحقير كما أكل صحناً من البطاطا مع اللحم وسلطة . كانت تلك مأدبة ! ولكنه كان يذوق كل شيء بأطراف اسنانه ، لم يكن جائعاً لأن معدته منقبضة .

وفي الساعة الرابعة ذهب لمقابلة السيد لمبير .

ان السيد لمبير شخص رائع ، فقامته الكبيرة المحدبة قليلًا ، ومشيته

---

(١) في مأساة هوراس الشاعر بيير كورني ان بطل روما قتل في معركة وطنية خطيب اخته فاستقبلته ثائرة وصبت اللعنات عليه وعلى روما التي أنجبته .

القاسية بعض الشيء ، كمشية الجندي ، ولحيته الطويلة التي تزين وجهه الجميل ، كل ذلك يوحي بالاحترام الممزوج بالخوف . كان له أيضاً صوت قوي ، جهوري ، موزون . أما حين تقترب منه ، وينظر اليك بعينيه المليئتين بالصراحة والعذوبة والسذاجة ، فإن الاحترام ينقلب الى ثقة مطلقة . انه ليستولي عليك بيسر ، ويمنح نفسه الحق والقدرة على إرشادك ، فتستسلم له بفرح . وان كل تلميذ في المدرسة يحس بثقل مسئولياته . وعندما يخلو الى ضميره يقول في نفسه ان اهله يضحون كثيراً إذ يدفعون نفقات دراسته ، والنجاح لا يتوقف إلا على التلاميذ ، فواجب هؤلاء الأخيرين واضح جداً اذن ! أما بالنسبة للأشخاص في مؤسسة (لمبير) فليس الأمر كذلك . ان عضو الارسالية يحمل على عاتقه بهدوء هذه المسؤولية بدلاً منهم . ليس لضيوفه إلا همٌ واحد : ارضاؤه . وعندما يرضي هو فمن الصعب على اي قريب الا يكون راضياً . فهو يقوم بدور المعلم القاسي ، والأب اليقظ ، والرفيق في اللعب بالنسبة لجميع الغرباء الذين يقيمون عنده . وها هو ذا يؤثر تأثيراً عظيماً في فورولو :

— أهذا أنت يا منراد ؟

— نعم سيدي .

— كلا ، يجب ان تقول نعم ايها الرئيس .

— نعم ، ايها الرئيس .

— لقد حدثني عزيز عنك ، ستسكن الغرفة التي يسكنها ، فهي جاهزة ، وستتمرس بسرعة بعادات المنزل ، فعلى المرء هنا ان يكون

حسن السلوك . انت لا تدخن فيما آمل ؟

– كلا أيها الرئيس .

– حسن ، حدثني قليلًا عن اسرتك .

راح منراد يتحدث عن أهله وعن مواردهم بكثير من الصدق ، وفهم رجل الارسالية فوراً انه امام فتى فقير . انه فقير جديد آخر .

– ان لك منحة ، وهذا هو الاساس . وعليك ان تجتهد لكي تحافظ عليها ، فكل رفقائك يجدون ، ستحاكيهم ، ثم تصبح من الكشافة !

اجاب منراد من غير تفكير :

– نعم ايها الرئيس .

– سيشرحون لك ذلك . وستعلم عما قريب ما معنى الكشافة .

ترك منراد هذا الرجل الطيب ، وهو مرتاح كل الارتياح ، شاعر نهائياً انه اتحد باسرة « لمبير » الكبيرة . ما أشد اطمئنانه ! ففي ذلك المساء نفسه اتيح له ان يدفع بمرفقه كثيراً من هؤلاء « الكشافة » العظيمين ، وبدوا له خدومين على الأخص .

هكذا انتهى يومه الأول ، واستعاده كله قبل ان ينام . كان سعيداً وشكر الرب . واذا كان لم يفكر كثيراً باخيه الصغير وباخواته وباهله ، فانه ليذكر دائماً صديق طفولته عقلي الذي ظل راعياً في الجبل ، بينما أصبح منراد ...

٦

تقع ارسالية « لمبير » في أعلى المدينة ، يفصلها عن المدرسة شارع عريض . وتشغل ارضاً مربعة ضلعها حوالى ستين متراً . وفي إحدى الزوايا يقوم مهجع الاسرة ، والى جانبها صالة المعبد ، وهي صالة واسعة عارية فيها كراسي وطاولة سوداء و (أرمونيوم) . تشغل غرف التلاميذ جانباً كاملاً من المربع : ست غرف في الطابق السفلي وست اخر في الطابق الأول . وهناك باحة مغلقة ، وبستان معتنى به مع حوض ظليل وعريشتان ومقعدان عريضان . في هذا المثوى المضياف اقام منراد وصديقه عزيز اربع سنوات . وهناك ذاقا مشتركين غير مرة الفرح الذي لا تشوبه شائبة ، وكان ذلك ثمرة من ثمار ثباتها . وهناك انعقدت بينهما اواصر صداقة من تلك الصداقات التي لا يستطيع الزمن ان يأتي عليها لانها ترتكز على الاحترام المتبادل والتفاهم المشترك .

لم يلبث منراد ان تغلب على مركب النقص الذي كان يجرده من كل إمكانياته . وحينما لاحظ ان رفقاءه ليسوا « ظاهرة غريبة » أكب على العمل بعزيمة كي يصل الى مرتبة مشرفة . ولم يتأخر ، شأنه شأن صديقه ، في ان يظهر بمظهر التلميذ المجتهد الكدود . ولم يجد هذا

ولا ذاك في هـذه الصفة مذمة لهما . وما لبث ان اعتبرت هذه لقباً وتركا بسلام .

كانا يذهبان ، كل أحد ، إلى الغابات تحت إشراف الرئيس ليشتركا بمباهج الكشفية . وكان منراد يعجب إذ يرى رجالاً كباراً ، كرجل الارسالية ، يضيعون وقتهم في اشياء صبيانية . لقد كان الرعاة في قريته يمارسون الكشفية إذن دون ان يعرفوا ذلك ؟ أما عن النظرية والاخلاق ومواد قانون المرشدين فقد كانت اشياء لا غبار عليها . ومع ذلك فقد تضاءلت حماسة الفتيين الجبليين كثيراً عند ما لاحظا ان الكشاف قد يكون رغم كل شيء خبيثاً وحسوداً وكاذباً . ولكن الواقع ان « الرئيس » كان كشافاً بكل ما في الكلمة من نبل . ولم يلبث عزير ومنراد ان تحملا هذه النزهات أيام الآحاد على انها ضرب من السخرة ، ولم يأبها قط بالحصول على رتبة ما في الكشافة ، فلم يكونا ليهتما إلا بدراستهما . ولاحظ القائد ذلك ، ولكن بما ان سلوكهما كان مرضياً فلم يستطع ان يطلب منهما شيئاً آخر .

وتبنيا هذا الموقف نفسه في اجتماعات المساء في قاعة الصلاة . كانا يذهبان اليه على نحو منتظم ، ويقرءان فقرات من الكتاب المقدس كالباقين ، وينشدان الاناشيد الدينية بعناية ، ويصغيان باحترام إلى شرح الرئيس ، ويعودان الى غرفتهما ليستأنفا بلا تردد عملهما الذي توقف . ولم يشاهدا قط يستفسران عن معنى فقرة ما ، أو يذهبان الى الصالة

ليسألا عن معنى هذه النقطة أو تلك من الديانة ، أو يطلبا الى « الراعي » أن يصلي لهما . كان رجل الارسالية يستقبل غالباً بسرور ، زيارات من هذا القبيل تتفاوت في صدقها ، إلا أنه كان يشعر أن هذين الفتيين كانا يهربان منه . كانت إرادتاهما المتحدتان جيداً تشكلان ارادة واحدة ، ومن الصعب ترويضها . ولم يكن من سبيل الى الفصل بينهما . ومع ذلك فلم يكونا ليصدرا عن خبث في ذلك . لم يكونا يشعران بأي نفور من المذهب البروتستنتي . بل على العكس فقد راحا مع الأيام يحبانه ليسره وتسامحه . وفهما الكتاب المقدس والعهد الجديد فهماً عميقاً وكانا يسران بالتغني – حتى ولو كانا منفردين – بالأناشيد التي تعلماها في تمجيد المسيح . وكانا يصليان ، بعض الأحيان، في أعماق قلبهما ، الصلوات التي رأيا غيرهما يصليها .

إلا ان الدراسة وحدها هي التي كانت الأمر الهام في نظرهما ، واذا كانا يقيمان عند رجل الارسالية ، فانما كان ذلك ليتاح لهما أن يجتهدا اكثر ، كانت رغبتهما في النجاح قاسية ، وصلابتهما لاتتزعزع . وأمضيا على هذا النحو ، وقلباهما مليئان بالبهجة ، أربع سنوات (من الخامسة عشرة حتى التاسعة عشرة) هي سنوات مراهقتهما ، السنوات التي تتوقف عليها صحة الانسان ، كل انسان ، وسعادته في المستقبل، كانا يمضيان النهار في الصف ، أما في المساء فكانا يدرسان ، بعد الصلاة، على ضوء الكهرباء حتى الساعة العاشرة ، ثم يشعلان شمعة ولا ينامان

قط قبل منتصف الليل أو الساعة الواحدة . وكان مؤذن القرية يفاجئها ، وهما أمام الكتاب ، حين يرفع نشيده الصباحي داعيـــاً الناس لصلاة الصبح .

اوه ! يالليالي الشتاء الطويلة ! سيذكرانها دائماً . المنزل مغمور في الصمت . والريح تصفر في الخارج والمطر يتساقط على السقف . الكل نائمون . ماعدا غرفتها وحدها التي كانت ترسل ضوءاً ضعيفاً من خلال خصاص النافذة . انها الشمعة تحترق ، وهما جالسان ، أحدهما أمـام الآخر ، ملفعان ببرانسهما أمام الدفاتر المفتوحة ، لايتكلمان بل يدرسان ويجاهدان النعاس ، لقد ادرك التعب ذهنهما المسكين . وهاهما يحسدان الرفاق الذين كانوا قد ناموا بتعقل . لكنهما يلجان في عنادهما ، وطوال السنوات الأربـع لم يذهب الى المدرسة قط من غير أن يكونا واثقين من أنفسهما ، عارفين بعمق كل دروسهما . وعندما انتقل منراد فيما بعد الى معهد المعلمين ، ولم يعد في استطاعته ان يبـــذل هذا الجهد نفسه ، لاحظ بدهشة انه كان ، في أغلب الاحيان ، يبذل الجهد وبلا مبرر ، وأنه غامر بفقد صحته .

وبالإضافة إلى هذا الجهـد الذي أخذا نفسيهما به ، فقد حرما على ذاتهما اكثر ما يستطيعان تحريمه . لقد حدثتهما كتب العلوم الطبيعية ماشاءت أن تتحدث عن الحريرات وكمية الغذاء الضرورية للعيش النمو إلا أنهما لم يكونا يؤمنان بشيء من هذا . كانا قد اشتريا موقداً ، وكانا يعدان

طعامهما بأنفسهما في الغرفة . بطاطا ! دائماً بطاطا ! كانت سهلة الصنع وطيبة الطعم . وكانت تثير في نفس منراد خاصة ذكريات عذبة . ولكنه بعد مضي سنتين على ذلك ضجر منها حقاً . أما عزير فحدثه عن البطاطا إذا أنت تعرفت عليه ذات يوم ! وفي بعض الأحيان كانا يتناولان بسرعة ، بغية التنويع ، غذاء بارداً : نصف رغيف لكليهما وعلبة مربى بسبعين سنتيماً وهذا كل شيء . كان ينفق كل منهما ثمانين فرنكا من المائة والثمانين فرنكا التي يقبضانها كل شهر ويرسلان الباقي لأهلهما .

كان رمضان ومهند ، والد عزير ، يزورانهما بين الحين والحين ويقضيان الليل بينهما . وكانا يهنئان نفسهما أن لهما مثل هذين الولدين المقتصدين ، وكانا يحثانهما على الاستمرار في ذلك . كان رمضان سعيداً جداً ، فالجميع يمتدحون فورولو ، في القرية . والحق أن الدرس لم تكلفه شيئاً . ومع ذلك فمن العدل أن نقول أيضاً انه كان يفتقد معونة ابنه كثيراً . وسرعان ماوجد رمضان نفسه مجبراً على التخلي عن زوج البقر كي يعني بأشجار التين والزيتون وحدها . وحين كان التلميذ يعود إلى بيته أثناء العطل الكبرى ، كان الأب يعتقد أن عليه أن عناية غير العناية بالرعاة : فنجان قهوة في الصباح ، وشيء من اللحم بين فترة واخرى ، وقليل من السمن للكوسكوس ، واعتادت الاسرة هذا البذخ وتبدد ما كان مدخراً . وعدما تقدم الفتى إلى امتحان شهادة الكفاءة كان لا بد من الاستدانة لشراء ثوب له ، ودفع نفقات اقامته في الجزائر ، وتردد

رمضان طويلًا قبل أن يلتجيء إلى مراب . ولكن عندما تم الأمر ، قبل بسهولة فوائد هذه المعاملات التي تستطيع انقاذ الانسان من الضائقة. وانتهى به الأمر الى أن يألف الاقتراض ذا الاستحقاق البعيد ، وراح يقترض كلما شعر بحاجة إلى ذلك . لقد تعب من الكفاح ، وراحت الأيام تزداد صعوبة شيئاً فشيئاً . ورمى حمل الاسرة بثقله على اكثر الدائنين متطلبات . وهذا بدوره سيضع الحمل الذي ازداد ثقلًا تحت عنايته ، وفي اللحظة التي يختارها ، على كتفي فورولو الفتيتين .

٧

كان فورولو المنهمك في دراسته يجهل مأساة أسرته . كان يشعر وهو في السادسة عشرة من عمره انه يصنع مستقبله من نظريات الهندسة ومعادلات الجبر ، بينما كان رفقاؤه يهتمون بهندامهم خاصة ، ويحلمون بالفتيات الصغيرات .

كان فورولو سريع التـــأثر حقوداً . كان ينقم على كل الذين لم يكونوا ينظرون اليه نظره جدية في القرية أو كانوا يسخرون من سذاجة اسرة منراد . وفي مطلع سنته الثانية في المدرسة بعد ان اجتاز السنة الاولى بنجاح باهر كان عليه ان يترك الدراسة لأن المنحة لم تجدد وليس من يعرف سبب ذلك . فانتظر المدير شهراً وشهراً . وإذ رأى في نهاية كانون الاول انه لم يرد شيء أعلم الطلاب الذين يستفيدون من المنـح ان عليهم أن يعودوا . وعاد هؤلاء الى قراهم مكتئبين . كان ذلك مأتماً في بيت منراد ، ولم يكن ايجاد المال لإبقاء الفتى في المدرسة موضع بحث . فهذه الفكرة لم تداعب أحداً . لقد كانوا يعلمون جميعاً ان فورولو سيظل بينهم ، ويصبح راعياً ، وإن ثمة أملاً فتح امامه على نحو غير ملحوظ ، ثم وجب أن يتخلى عنه الآن . وبعـد ان انتهت ايام العطلة بعد رأس السنة راح الناس في القرية يتعجبون ثم استحال عجبهم

الى سخريات مألوفة . كان فورولو يبكي في سره لهذه الفكرة ، ويقول في نفسه انه قد اهين ولم يعد في استطاعته أن يظهر بين الناس . ومع ذلك فانه لم يصرف لعجزه أو لسوء سلوكه . لقد عاد الى بيته لأن المال كان ينقصه . وقد وعد المدير بالكتابة الى اكاديمية الجزائر ، وتحدث عن السهو والنسيان والخطأ . فلا يمكن ان تحذف منح مؤسسة كاملة دفعة واحدة ! ولكن كيف يمكن افهام ذلك للهازئين ؟

أمضى فورولو بعد عيد الميلاد اسبوعاً رهيباً في تيسي . كان الذين يتعرفونه يظهرون نحوه شفقة مهينة كانت تمرضه . وإذا ما حاول ان يشرح لهم ان المنحة ستعاد اليه وانه انما بقي في القرية منتظراً ذلك ، فقد كانوا يهزون رؤوسهم وينصحونه بألا يعود الى التفكير في هذا الموضوع . وكان يحدث ان يغضب حتى لتظهر الدموع في عينيه ، وعند ذاك كانوا يضحكون ويشتمونه .

ـ ايه يا ابن رمضان ، لقد تركوك ! وبقيت لك العنزات مثلنا جميعاً !

ـ كلا . سأعود الى المدرسة !

ـ ربما بمال المرابين ؟

ـ وما أهمية ذلك ؟

ـ يا احمق . انت تهدم أباك بدلاً من ان تساعده .

وبدا ابوه نفسه ، اثناء ذلك مرتبكاً ، نادماً على انه دفع ابنه في طريق شديدة الوعورة بالنسبة للفقراء .

كان فورولو خلال هذا الاسبوع عرضة لمحنة رهيبة . كانت تؤلمه الحكم الحمق تصدر من بعض الناس ، ويثيره حسد غيرهم . كان القدر ظالماً والناس ظالمين . كان كل شيء عدواً له . ولكنه فهم مع مرور الزمن ان مَرَدَّ عداوة الناس وفرحهم الشرير وبغضهم الى انهم نظروا إليه نظرة جدية . لقد خُيِّل إليهم انه كان جديراً بالنجاح وبانتشال اسرة منراد . أما الآن ..

واخيراً عند ما وصلت الرسالة التي حملت البشرى السعيدة عاد فورولو الى تيسي اوزو وقلبه يفيض فرحاً . وقد عزم عزماً رهيباً على ان يعمل في سبيل نجاحه ولو استنفد العمل قواه . وتحدثت امه عن رغبتها في أن تحمل قرباناً الى القبة ، ولكنه كان يعلم ان القربان لن يؤثر شيئاً على مصيره . كان يعرف انه وحيد في معركة لا هوادة فيها .

وفي العمر الذي كان رفقاؤه يؤخذون فيه بالثير ، كان هو يحفظ قصيدة « البحيرة » ، لا لشيء إلا ليحصل على علامة جيدة . ولكن لما كان يبدأ قراءة النص بلهجة فاترة . بدلاً من ان يقرأه بلهجة فيها عذوبة حزينة لقلب حساس مرهف فقد كان المعلم يؤنبه ، ويعود فورولو ليجلس في مكانه والحقد يملأ قلبه .

لم يكن فورولو يعرف كيف يمكن للعمل المستمر ان ينتشله هو وذويه من بؤسهم . ولكن يجب ان نعترف له بهذه الفضيلة ذلك بأنه لم يشك بقيمة الجهد . كان للجهد ثمن ، ولقد حصل على هذا الثمن ،

فحينما نجح في فحص الكفاءة فهم ذووه وأهل القرية أخيراً أنه لم يضع وقته تماماً ، ولكن الكفاءة لا تفتح كثيراً من السبل . يجب أن يجابه مسابقات جديدة . كان فورولو يحلم دائماً بدخول معهد المعلمين .

كان يعود كل سنة أثناء عطل الصيف ، إلى أهله . وكان عنده آنذاك مجال لينسى المدينة وكانت المدينة تنساه . كان يتحول شيئاً فشيئاً ، ويبيح لنفسه أن يعود إلى رفقائه والجمعة والمقهى وأعمال الحقل والقرية بكاملها . وكان يجب أن ينتزع نفسه في مطلع تشرين الاول كل عام من الجبل مرتدياً ثيابه ، ثياب الفلاح ، ولن يترك بين زملائه الذين يترددون في معرفته ، وقد اسمر لونه وصلب جلده ببقع الصيف .

عاد فورولو الى المدرسة رغم حصوله على شهادة الكفاءة اذن . لقد ذهب ليدرس سنة اخيرة ! كانت شهادته تمنحه ضمانا رغم ان وضع اهله المادي كان يسوء يوماً بعد يوم . ولم يعد الناس ينظرون اليه في القرية نظرتهم الى طفل . كان أبوه يستشيره في كل امر ، والاعمام يدعونه الى كل اجتماع . ويأتي الناس لاستشارته أو يطلبون اليه ان يكتب لهم رسائل صعبة . كانوا يولونه أهمية ، ولكن فورولو لم يكن ليغتر بذلك . كان يود لو أنهم ينصحونه ويشجعونه ويعضدونه . كان يشعر أنه وحيد . وكان الناس يولون ثقتهم بينما كان فورولو يود ان يثق بانسان ويهتدي بنصائحه كالأعمى ، فلا يشغله شيء الا الاهتمام ببرامج دراسته . قال له أبوه قبل رحيله :

– امض يا بني ، سيكون الله معك ، وسيرشدك الى الطريق .

قبلته امه بحنان وابتسمت بكبرياء ساذجة . كان الأمر واضحاً ، فالأهل لايشكون في شيء البتة . كانوا واثقين من نجاحه . وسينجح ابنهم مرة اخرى على نحو طبيعي وسيسعدون بذلك .

اما هو فقد كان يعرف انه اذا رسب فستغلق في وجهه ابواب معهد المعلمين الى الابد ، ذلك بأنه كان على حدود العمر المطلوب للدخول في المسابقة . وسيكون عليه أيضا ان يعمل وحيداً في ظروف سيئة . وانىّ لأهله ان يعرفوا انه اذا مارسب فسيسعى للذهاب الى فرنسا . ولقد تسلطت عليه هذه الفكرة طوال الصيف . وفي فرنسا سيجد من يستخدمه عاملًا في أحد المعامل . أما في الجزائر فهو بين تيارين : اما ان يصبح معلماً ، وهذا يعني الرخاء بالنسبة للاسرة كلها أو ان يعود الى حياة الراعي .

وكلما مرت الايام بدت له المسابقة بعيدة المنال مخيفة . كان فورولو وهو يعمل ، يشعر بهمته تفتر . كان يتخيل نفسه في حزيران عائداً الى القرية بكتبه التي لا فائدة منها ، وشهادته التي لانفع فيها ، تستقبله امه والدموع في عينيها ، ولكنها تظل متسامحة كعهدها دائما ، وليستقبله أبوه خائبا بائسا . كان يتصور احتقار كل الآخرين له . وكان يشعر فترات اخرى بالثقة . كان يقامر بمصير أهله ، ويلعب بورقتهم الاخيرة . ووجد نفسه قبل اسبوع من اليوم العظيم في حالة من حالات التأهب

الفكري . كان أبوه قد نزل الى المدينة كي يحضر له شيئا من المال يؤمن له نفقات اقامته في الجزائر . فخرجا الى الطريق العام وراحا يتنزهان في انتظار الشاحنة التي ستعيد رمضان . قال هذا :

– ستذهب الى الجزائر ، وهناك ستكونون كثيرين ، ولن يختاروا منكم الا عدداً قليلًا . والمصادفة تلعب دوما دورهـــا في الاختيار . ستذهب الى الجزائر كما يذهب رفقاؤك ، أما نحن فسننتظرك هناك . ستعود الى المنزل اذا رسبت . تذكر جيداً أننا نحبك . ثم ان علمك لن يؤخذ منك أليس كذلك ؟ إنه ملك لك . والآن هأنذا أعود الى القرية ستعلم أمك انني حدثتك . وسأقول إنك لست خائناً .

– نعم ، ستقول هناك انني لست خائناً !

المؤلف

ولد مولود فرعون الكاتب الجزائري سنة ١٩١٢ في قرية تابعة لمديرية فورناسيونال في منطقة القبائل العليا ، ويظهر انه كان مهيأ ليكون راعياً ، ولكن الحظ حالفه فاستطاع ان يتعلم ويدرس ، ثم عاد الى قريته حيث عين فيها معلماً ، وحاول ان ينقذ اخوانه من ان يكونوا رعاة اجلافاً حهالا كما كان منتظراً ان يكون

وقد كتب مولود فرعون روايتين : (الارض والدماء) و (ابن الفقير) ومجموعة ابحاث بعنوان (ارض القبائل)

وفي يوم ١٧ آذار ١٩٦٢ اغتالته منظمة الجيش السري الفرنسية الارهابية .

ومن الجلي ان الاوضاع الاستعمارية جعلت من الجزائر بلداً فارغـــاً ، مجدباً ، متأخراً اقتصادياً ، يعيش اهله في مستوى معاشي وغذائي منخفض ، لا يعادله في انخفاضه افقر بلاد العالم، وهذا ما يجعل مشكلة الفقر والبؤس من اعقد المشاكل التي يواجهها الواقع الجزائري ، وقد انعكست على آثار كتاب الجزائر فلم يخل منها كتاب أو رواية او بحث .

وقد استطاع مولود هو الآخر ان يجلو مظـــاهر الفقر في القبائل الجبلية صوراً فيهـــا مرارة وحزن وتهكم .

وروايته (ابن الفقير) التي نقدمها اليوم لقراء العرب ، نالت شهرة بعيدة في الجزائر أولاً ثم تعدتها الى افريقيا الشمالية كلها حتى غدت من الكتب الادبية الكلاسيكية ، ويدرسها الطلاب على انها من روائع الادب المغربي المكتوب بلغة فرنسية .

وتجري حوادث الرواية في قرية نائية من قرى القبائل الجبلية . وهي قرية ذات ازقـــة ضيقة معوجة ، يملأها الغبار صيفاً ، والوحل شتاء ، وقد بنيت بيوتها من اللبن ، وسقفت بالخشب والقصب والشوك ، وطليت الجدران بالكلس .

وان حياة هذه القرية كحياة كل فرد من افرادها : عالم مستقل صاخب في افراحـــه واحزانه ومطامعه وتناقضاته وآفاته النفسانية، إلا انه عالم محدود ، غريزي ، بدائي ، يدور كله في فلك الرغيف وبلغة العيش ، فالحصول على القوت اليومي قضية اساسية يتركز عليها سلوك اهل القرية ونمط حياتهم وتفكيرهم وتفاعلهم مع محيطهم، فهم يتآخون ويتعاونون ويتنابذون ويتحاسدون ويجوعون ويصيرون في اطار من الاستسلام لمشيئة الاقدار والرضى بالقليل والرزق المقسوم .

وان الطابع العام الطبيعي للقرية هو المساواة وانعدام الفوارق والجهد لاستنباط الخيرات من ارض شحيحة .

وقد أبدى مولود فرعون في روايته هذه موهبة نادرة في فهم النفوس واحساساً نفـــاذاً قادراً على الاندماج والتقمص في ابطاله وتحريكهم من الداخل والخارج وبث معاني الحياة فيهم .

والرواية تسجل انتصار الانسان على الظروف السيئة المحيطة به، وتمجد ارادته التي لا تهزم، وهي ليست سوى تاريخ حياة الكاتب نفسه ، ففيها يصف تجاربه وآلامه وتغلبه على المحن والنكبات والمشاق .

الدكتور ابراهيم الكيلاني

الناشر : دار دمشق
للطباعة والنشر والتوزيع

السعر ١٤٠ ق . س

Property of
Princeton University
Library

LIBRARY
OF
PRINCETON UNIVERSITY